

# الباب الحادى والعشرون

## العصر الذهبى للفلسفة

### الفضل الأول

#### العلماء

إذا وازنا بين حال العلم فى القرن الرابع وبين الخطوات الجريئة التى خطاها إلى الأمام فى القرن الخامس ، وبالانقلاب الثورى الذى حدث فيه فى القرن الثالث ، نحكمنا من فورنا بأنه كان فى هذا القرن الأوسط فى حالة ركود ، وأنه قنع فى معظم الأحوال بتسجيل ما تجمع له فى القرن السابق .

فهد كتب أكسانوقراطيس Xenocrates تاريخاً للهندسة ، وكتب ثاوفرسطوس تاريخاً للفلسفة الطبيعية ، وكتب مينون Menon تاريخاً للطب وأوديموس Eudemus وتواريخ الحساب ، والهندسة ، والفلك<sup>(١)</sup> . وبدا لعلماء ذلك العصر أن المسائل الدينية والأخلاقية والسياسية أكثر أهمية وأولى بالدرس من مشاكل الطبيعة ، فتحول الناس مع سقراط من دراسة العالم المادى دراسة موضوعية إلى البحث فى أحوال النفس وشئون الدولة .

وكان أفلاطون يحب العلوم الرياضية فغمر فيها فلسفته إلى أعماق بعيدة ، وجعلها شغل المجتمع العلمى ، وكاد فى سراقوسة أن يهب لها مملكة بأسرها . لكن الحساب كان فى نظره نظريات فى الأعداد تتصف بالكثير من الغموض ؛ ولم تكن الهندسة هى قياس الأرض ، بل كانت تدريجياً عقلياً ، خالصاً ، وطريقاً يصل به العقل إلى الله . ويحدثنا فلوطرخس عن « غضب » أفلاطون من أودكسوس

Eudoxus وأرخيتاس Arehytas لأنهما قاما بتجارب في الميكانيكا « فأفسدا الشيء الوحيد الطيب في الهندسة ، وقضيا عليه قضاءً مبرماً ، وأبعداه بطريقة مخجلة يجلهما العار من المسائل العقلية الخالصة غير المحسنة إلى المحسوسات ، واستعانا على عملهما هذا بالمادة » . ويقول فلوطرخس بعد ذلك : « إن الميكانيكا قد انفصلت بهذه الطريقة عن الهندسة ، وأنكرها الفلاسفة وأهملوا أمرها ، فأصبحت من فنون الحرب<sup>(٢)</sup> . على أن أفلاطون رغم هذا قد قدم للعلوم الرياضية بطريقته العقلية المجردة أجل الخدمات ، فأعاد تعريف النقطة وقال إنها مبدأ الخط<sup>(٣)</sup> ، ووضع قاعدة لإيجاد الأعداد المربعة التي هي مجموع مربعين<sup>(٤)</sup> ، واخترع التحليل الرياضي أو ارتقى به<sup>(٥)</sup> ، ونعنى بالتحليل الرياضي البرهنة على صحة قضية أو خطئها بالنظر إلى النتائج التي يؤدي إليها الأخذ بها ، وليست طريقة إقامة البرهان بنقض نقيضه إلا صورة من هذه الطريقة . وكان الاهتمام بالرياضيات في منهاج المجمع العلمي عوناً كبيراً للعلوم الطبيعية ، ولو لم يؤد هذا الاهتمام إلا لتدريب تلاميذ مبتكرين أمثال أوكسوس النيدى<sup>(\*)</sup> ، وهرقليدس الهنتي<sup>(\*)</sup> ، لكفاه فضلاً .

وعمل أرخيتاس صديق أفلاطون على ترقية رياضيات الموسيقى ، وضاعف المكعب ، وكتب أول رسالة معروفة في الميكانيكا . هذا إلى أنه اخترع حاكماً لمدينة تاراس Taras سبع مرات ، وكتب عدة بحوث في الفلسفة الفيثاغورية . ويعزو إليه الأقدمون ثلاثة اختراعات عظيمة الخطر - البكرة وطارة السير ، واللولب ، ( والشخيشة ) . وكان الاختراعات الأولان أساس الصناعة الآلية ، أما ثالثهما فيقول عنه أرسطاطاليس في كثير من الجدل والوقار « إنه هياً للأطفال

عملا يشغلون به أنفسهم فنعمهم بذلك أن يحطموا ما في البيت من أدوات<sup>(٦)</sup> . وفي هذا العصر نفسه « ربيع » دينوستراتس Dinostratus « الدائرة » باستخدام القوس الذى يمكن به إيجاد الخطوط المستقيمة المساوية لخطات الدوائر أو غيرها من المنحنيات. ووضع أخوه مينكموس Menaechmus أحد تلاميذ أفلاطون ، أساس هندسة القطاعات المخروطية<sup>(\*)</sup> ، وضاعف المكعب ، ووضع قاعدة التكوين النظرى للخمسة الأجسام الصلبة المنتظمة<sup>(\*\*)</sup> ، وصاغ نظرية الأعداد الصماء ، وأورث العالم تلك العبارة المشهورة ، وهى قوله للإسكندر : « أيها الملك إن ثمة طرقا للملوك وأخرى لعامة الشعب يسافرون عليها فى أقطار الأرض ؛ أما الهندسة فليس فيها إلا طريق واحد يسلكه جميع الناس †<sup>(٨)</sup> » .

وأعظم رجال العلم فى القرن الرابع هو أودكسوس الذى أعان بركستيلز على تحليل اسم نيدس فى التاريخ . وقد ولد فيها حوالى عام ٤٠٨ ، وشرع وهو فى الثالثة والعشرين من عمره يدرس الطب مع فلستيون Philistion فى لكرى Locri ، والهندسة مع أرخيتاس فى تاراس ، والفلسفة مع أفلاطون فى أثينة . وكان لفقره يعيش معيشة ضنكاً فى بيرية ، ويسير منها على قدميه إلى المجمع العلمى فى كل يوم من أيام الدراسة . وبعد أن

---

(\*) عرف اليونان القطاعات المخروطية بأنها الأشكال - القطع الناقص ، والقطع المكافئ ، والقطع الزائد - التى تنتج من قطع مخروط ذى زوايا حادة ، وزوايا قائمة ، وزوايا منفرجة بسطح عمودى عليه . وتضيف العلوم الرياضية الحديثة إلى هذه الأجسام الدائرة المخطوط المتقاطعة .

(\*\*) وهما الهرم الثلاثى المنتظم ، والمكعب ( ذو الستة الأوجه المنتظم ) ، والمثلث المتكعب ، وذو الأثني عشر وجهها المنتظم ، وذو العشرين وجهها المنتظم - وهى الأجسام الصلبة المحدبة التى تحدها أربعة سطوح منتظمة ، أو ستة ، أو ثمانية ، أو اثنا عشر سطوحاً أو عشرون . †) كان لفظ الطرق الملكية يطلق عادة على الطرق العظمى التى أنشئت فى الإمبراطورية الفارسية . وتعزى هذه القصة أيضاً إلى إقليدس وبطليموس الأول<sup>(٨)</sup> .

أقام زمنا ما في نيدس سافر إلى مصر وقضى فيها ستة عشر شهراً يدرس الفلك على كهنة عين شمس ثم نجده بعد ذلك في سيزقوس البريونثية Proportin Cyz'cus يحاضر في العلوم الرياضية . ولما بلغ الأربعين من عمره انتقل هو وتلاميذه إلى أثينة وافتتح فيها مدرسة لتعليم العلوم الطبيعية والفلسفة ، ونافس أفلاطون وقتاً ما . ثم عاد آخر الأمر إلى نيدس وأقام فيها مرصداً ، وعهد إليه أن يضع للمدينة طائفة من القوانين<sup>(٩)</sup> .

وقد وضع في الهندسة عدة مبادئ أساسية ، فهو الذي وضع نظرية النسبة ومعظم الفروض التي انتقلت إلينا في الكتاب الخامس من كتب إقليدس ، وهو الذي اخترع طريقة إفناء الفرق التي أمكن بها إيجاد مساحة الدائرة وحجم الكرة ، والمهرم ، والمخروط ، ولولا هذا لكان عمل أرشميدس المبدئي مستحيلاً . ولكن العلم الذي وهب له أودكسوس معظم جهوده هو علم الفلك . ونستطيع أن نلمح روح العالم في قوله إنه يسره أن يحترق كما يحترق فيتون إذا استطاع بهذا أن يكشف عن طبيعة الشمس وحجمها وشكلها<sup>(١٠)</sup> . وكان لفظ التنجيم Astrology يستعمل في ذلك الوقت ليشمل ما نسميه الآن علم الفلك Astronomy ، ولكن أودكسوس أشار على تلاميذه أن يغفلوا نظرية الكلدانيين القائلة إن مستقبل الإنسان يمكن التنبؤ به بالنظر في مواقع النجوم وقت مولده . وكان شديد الرغبة في أن يرجع جميع الحركات السماوية إلى قوانين ثابتة ، ووضع في كتابه الفينومينا Phenomena - الذي يعده الأقدمون أعظم ما كتبه في علم الفلك - أساس التنبؤات الجوية .

---

(٩) وكان من المسائل المحيية له مسألة إيجاد « القطع الذهبى » أ أن يقسم الخط في نقطة بحيث تكون النسبة بين الخط كله وجزئه الأكبر ، كالنسبة بين هذا الجزء الأكبر والجزء الأصغر .

وأخفقت أشهر نظرياته إخفاقاً باهراً . فقد قال إن العالم يتكون من سبع وعشرين دائرة شفاقة لا تراها العين لشفيفها تدور في اتجاهات مختلفة وبسرعات متباينة حول مركز الأرض ، وإن الأجرام السماوية مثبتة حول قشرة هذه الدوائر المتحدة المركز . ويبدو هذا النظام الآن نظاماً مغرماً في الخيال ، ولكنه كان أول محاولة بذلت لتفسير حركات الأجرام السماوية تفسيراً علمياً . وعلى أساس هذه النظرية حسب أودكسوس بدقة عظيمة ( إذا ما اتخذنا « معلوماتنا » الحاضرة في مثل هذه المسائل مقياساً نحكم به على الأشياء ) أوقات اقتران الكواكب وحلوها في البروج المختلفة (\*). وكان لهذه النظرية أثر أقوى من أية نظرية أخرى في الزمن القديم لإيقاظ روح البحث العلمي .

وكتب إكفتوس السراقوصى حوالى عام ٣٩٠ . ومن أقواله أن الأرض تدور حول مركزها في اتجاه شرقى (١٢) . وأخذ هرقليدس الهنئى هذا الإيجاء ، أو لعله وصل إليه مستقلاً ، وقال إن العالم لا يدور حول الأرض ، وإن الظواهر المتصلة بهذا الفرض يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض نفسها تدور مرة في كل يوم حول محورها (١٣) . ومن أقواله أيضاً إن الزهرة وعطارد يدوران

---

(\*) إن فترة الاقتران لمجرم من الأجرام السماوية هي الزمن المحصور بين اقترانين متتاليين بينه وبين الشمس ، كما يرى من الأرض . أما فترة الحلول في برج من البروج فهي الزمن المحصور بين ظهور جرم سماوى مرتين متتاليتين في هذا البرج أى في ذلك الجزء من السماء المقسمة تقسيماً خيالياً إلى اثني عشر قسماً يسمى كل منها برجاً . وقدر أودكسوس فترة اقتران زحل بـ ٢٩٠ يوماً وتقديرنا نحن الآن بـ ٣٨٧ ؛ والمشتري بـ ٣٩٠ ، وتقديرنا نحن هو ٣٩٩ ؛ والمريخ بـ ٢٦٠ وتقديرنا نحن بـ ٧٨٠ ، وعطارد بـ ١١٠ ( وقد ورد في أحد المخطوطات ١١٦ ) ، وتقديرنا هو ١١٦ ؛ والزهرة بـ ٥٧٠ وتقديرنا هو ٥٨٤ . أما الفترة بين حلول الكواكب في الأبراج مرتين متتاليتين كما قدرها أودكسوس فهي ٣٠ سنة لزحل وتقديرنا نحن هو ٢٩ سنة و١٦٦ يوماً ، والمشتري ١٢ سنة وتقديرنا نحن ١١ سنة و ٣١٥ يوماً ، والمريخ سنتان ، وتقديرنا سنة ٣٢٢ يوماً ، ولعطارد والزهرة سنة . وهذا يتفق بالعبط مع تقديرنا (١١)

حول الشمس ، ولعل هرقليدس في لحظة من لحظات التجلي العلمي قد استبق أرسطرخوس وكوبرنيك ، لأننا نقرأ في الجزرات الباقية من كتابات Geminus (حوالي عام ٧٠ ق . م ) أن هرقليدس البني قال : حتى لو افترضنا أن الأرض تدور بطريقة ما ، وأن الشمس ساكنة بطريقة ما ، فإن ما يبدو لنا من عدم انتظام الشمس لا يستعصى على الفهم<sup>(١٤)</sup> . وأكبر الظن أننا لن نستطيع فهم ما كان يقصده هرقليدس بقوله هذا بالضبط .

وكانت العلوم الطبيعية في هذه الأثناء تتقدم تقدماً بطيئاً . ففي الجغرافية قام ديقايرخوس المساني Dicaearchus of Messana كاتب السير اليوناني بقياس ارتفاع الجبال ، وقدر طول محيط الأرض بما يقرب من ثلاثين ألف ميل ، ولاحظ تأثير الشمس في المد والجزر . وفي عام ٣٢٥ سافر نيارخوس Nearchus أحد قواد الإسكندر بجرأ من مصب نهر السند محازيا ساحل آسية الجنوبي إلى مصب الفرات ، وكان يجبل سفينته الذي احتفظ أريان Arrian ببعضه في كتابه Indica<sup>(١٥)</sup> من أهم الكتب الجغرافية القديمة . وكان علم المساحة التطبيقية - أي قياس السطوح ، والمرتفعات . والمنخفضات والمواقع ، والأحجام - قد وضع له اسم خاص يميزه من الهندسة النظرية geometry وهو الجيوديزيا<sup>(١٦)</sup> . وكان فلسطين Philistion أحد أبناء بلدة لكربي Lorcri الإيطالية يمارس تشريح الحيوانات في بداية ذلك القرن ، وقال إن القلب هو المنظم الرئيسي للحياة ، ومركز النيوما أي النفس . وشبرج ديوقليس Diocles أحد أبناء بلدة كرسطوس Carystus العويية حوالي ٣٧٠ أرحام إناث الحيوان ، ووصف الأجنة البشرية من بداية اليوم السابع والعشرين إلى اليوم الأربعين من حياتها ، وتقدمت على يديه علوم التشريح والأجنة وأمراض النساء والولادة ، وأصلح إحدى الأغلاط اليونانية الشائعة بقوله إن « بندقي » الذكر والأنثى تشتركان في تكوين

الجنين (١٧). وكانت امرأة تدعى أسيلزيا ( غير أسيلزيا أم الإسكندر ) من أشهر الطبيبات في أثينة في القرن الرابع ، وذاع صيتها بمولفاتها في أمراض النساء والجراحة وغيرها من فروع الطب (١٨) . وخشى إينياس تكتنكوس Aeneas Toticus الأركادى أن يؤدي تقدم الطب إلى إنقاص نسبة الوفيات أكثر مما تحتمله موارد الغذاء ، فنشر حوالى عام ٣٦٠ أول كتاب شهر في فن الحرب ، وجاء نشره في الوقت الذى استطاع فليب والإسكندر أن يفيدا بما ورد فيه من المعلومات .

## الفصل الثاني

### المدارس السقراطية

#### ١ - أرسطوبوس

إذا كان العلم في القرن الرابع لم يتجاوز الدرجة الوسطى من الرقي ، فقد كان هذا القرن عصر الفلسفة الذهبي . لقد بسط المفكرون الأولون آراء عامة ، في نظام الكون ، وجاء السوفسطائيون فشكوا في كل شيء عدا البلاغة ، وأثار سقراط آلاف الأسئلة ولم يجب عن واحد منها . أما الآن فقد نبتت البذور التي زرعت في مائتي عام وصارت نظاماً عظيمة في بحوث ما وراء الطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة . وكانت أثينة وقتئذ أفقر من أن تحتفظ لدولة بمصلحة طيبة ، ولكنها رغم فقرها هذا أنشأت جامعات خاصة ، فأضحت بذلك « مدرسة هلاس » على حد قول إسقراط ، وحاضرة بلاد اليونان الذهبية ، والحكم الذي لا معقب لحكمه في شئونها العلمية . ولما أن ضعف الفلاسفة الدين القديم أدخلوا يكافحون لكي يجدوا في الطبيعة وفي العقل بديلا من هذا الدين يكون دعامة للأخلاق وهدايا للناس في سبيل الحياة .

وكان أول ما عملوه أن ارتادوا السبل التي فتحتها لهم سقراط . ذلك أن السوفسطائيين كانوا قد ارتكسوا فاقنصروا في الغالب على تدريس البلاغة ، وزالوا بوصفهم طبقة مستقلة ؛ ولهذا أصبح تلاميذ سقراط مركز عاصفة من الفلسفات الشديدة التباين . فقد أثار إقليدس الميغاري Euclides of Megara ، الذي سافر إلى أثينة ليستمع إلى سقراط ، « عاصفة من الجدل » في مسقط رأسه كما يقول تيمس الأثيني<sup>(١٩)</sup> ، وارتقى بنقاش زينون وسقراط فجعله

فناً من الجدل يرتاب في كل نتيجة منطقية ، وأدى ذلك في القرن التالي إلى نزع برون وقرنيادس التشككية . وبعد أن مات إقليدس اتجه تلميذه النابه استلپون Stilpo بالمدرسة الميغارية شيئاً فشيئاً نحو النظرة الكايبية (Cynic) التي تقول : بما أن كل فلسفة يمكن دحضها ، فإن الحكمة لا تكون في بحوث ما وراء الطبيعة ، بل في الحياة البسيطة التي تحرر الفرد من الاعتماد في رفاهيته على العوامل الخارجية . ولما سأل دمتريوس بليوقريطس Demetrius Poliorcetes بعد نهب ميغارا عن مقدار ما خسره أستلپون أجابه ذلك الحكيم بقوله إنه لم يك يملك شيئاً غير المعرفة ، وأن أحداً لم يفتصبها منه (٢٠) . وكان من بين تلاميذه في آخر سني حياته واضح أسس الفلسفة الرواقية ، ولذلك فإن من حقنا أن نقول إن المدرسة الميغارية قد بدأت بزيتون واختتمت بزيتون آخر .

وسافر أرسطوبس الظريف بعد موت سقراط إلى مدن متفرقة ، وقضى بعض الوقت في سلس Scillus مع أكسانوفون ، ووقتاً أطول من هذا مع لئيس Lais في كورنثة (١٢) ، ثم ألقى عصا الترحال في قورينة مدينته الأصلية القائمة على ساحل أفريقية . وكان ثراء الطبقات العليا في هذه المدينة النصف الشرقية قد كونا عاداته ، فكان أكثر مما يتفق فيه مع مبادئ أستاذه هو قوله إن السعادة أعظم فضيلة . وكان أرسطوبس وسيم الطلعة ، دمث الأخلاق ، بارعاً في الحديث ، فشق بهذه الصفات طريقاً له في كل مكان . وتحطمت به سفينته قرب رودس واشتد عليه الفقر فيها ، فذهب إلى مدرسة للتدريب الرياضي ، وأخذ يخطب فيها ، فافتتن به رجالها وقدموا له هو وأصحابه جميع وسائل الراحة ؛ فلما فعلوا ذلك قال لهم إن الآباء يجب أن يسلحوا أبناءهم بثروة يستطيعون أن يخلوها معهم إلى البر إذا تحطمت بهم السفن (٢٢) .

وكانت فلسفته بسيطة وصرحة ؛ قال : إن كل ما نفعله إنما نفعله طمعاً في اللذة أو خوفاً من الألم - حتى إذا أفرنا أنفسنا خير أصدقائنا ، أو ضحيننا

يجباتنا من أجل قوادنا . وعلى هذا فالناس كلهم مجمعون على أن اللذة هي الخير الذي لا خير بعده ، وأن كل ما عداها حتى الفضيلة والفلسفة يجب أن يحكم عليه حسب قدرته على توفير اللذة . وعلمنا بالأشياء غير مؤكدة ، وكل ما نعرفه معرفة مباشرة أكيدة هو حواسنا ، فالحكمة إذن لا تكون في السعي وراء الحقيقة المجردة بل في اللذات الحسية . وليست أعظم اللذات هي العقلية أو الأخلاقية ، بل هي اللذات الجسمية أو الحسية ، ولهذا فإن الرجل العاقل هو الذي يسعى وراءها أكثر من سعيه وراء أى شيء آخر ، والذي لا يضحى بخير عاجل في سبيل خير آجل غير مؤكد . والحاضر وحده هو الموجود ، وأكبر الظن أنه لا يقل من حيث الخير عن المستقبل إن لم يفقه ذلك . وفن الحياة هو انتهاب اللذات وهي عابرة والاستمتاع بكل ما نستطيع أن نحصل عليه في الساعة التي نحن فيها (٢٣) . وليست فائدة الفلسفة في أنها قد تبعدنا عن اللذة ، بل فائدتها في أنها تهدينا إلى أن نختار أحسن اللذات وننتزع بها . وليس صاحب السلطان على اللذات هو الزاهد المتكشف الممتنع عنها ، بل هو الذي يستمتع بها دون أن يكون عبداً لها ، والذي يستطيع بعقله أن يقارن بين اللذات التي تعرضه للخطر ، والتي لا تعرضه له . ومن ثم كان الرجل الحكيم هو الذي يظهر الاحترام المقرون بالفطنة للرأي العام وللشرائع ، ولكنه يعمل بقدر ما يستطيع على « ألا يكون سيذا لإنسان ما أو عبداً له (٢٤) » .

وإذا كان يشرف الإنسان أن يعمل بما يدعوا الناس إلى عماله فقد كان أنتسبوس خليفاً ببعض هذا الشرف . فقد كان في فقره وغناه على السواء سمحاً كريماً ، ولم يكن يتظاهر بالميل إلى إحدى الناحيتين . وكان يصبر على أن يتقاضى أجرأ على ما يعلمه ، ولا يتردد في أن يتملق الطغاة إذا كان في هذا الملق ما يوصله إلى أغراضه . وقد ابتسم ولم يتأفف حين بصق دنيسيوس الأول في وجهه وقال : « إن من واجب الصياد أن يتحمل أكثر من هذا الماء ليمسك بسمكة

أصغر من التي أريدها (٢٥) « ولما أن لاهمه صديق له على ركوعه أمام دنيوسوس أجابه بأنه ليس من عيبه هو أن تكون أذنا الملك في قدميه » ، ولما سأله دنيوسوس لم يلزم الفلاسفة أبواب الأغنياء ، ولا يلزم الأغنياء مجالس الفلاسفة ، أجابه بقوله : « ذلك بأن الأولين يعرفون ما يريدون أما الآخرون فلا يعرفونه (٣٦) » . ولكنه مع ذلك كان يحترق من يطلبون المال لذاته . ومن ذلك أنه لما أن أراه سيموس Simus الفريجي الثرى بيتا له جميلا مفروشا بالرخام بصق أنتسبيوس في وجهه ؛ فلما أن احتج عليه سيموس اعتذر بأنه لم يجد بين ذلك الرخام كله مكانا أليق من وجهه بالبصق عليه (٢٧) . ولما أن جمع من المال ما يريد أنفقه بسخاء على الطعام الشهى ، والكساء الجميل ، والمسكن الفخم ، والنساء الحسنان ( على ما كان يبدو له ) . ولما أن لاهمه بعضهم على أنه يعاشر حظية أجابه بقوله إنه لا يعارض في أن يعيش في بيت سكة آخر قبله أو أن يسافر في سفينة سافر فيها غيره (٢٨) . ولما قالت له عشيقته : « إنى أعاشرك معاشرة الأزواج » قال لها : « إنك لا تستطيعين أن تقولى إننى أنا الذى أعاشرك ، كما لا تستطيعين أن تقولى بعد أن تحترقى أجرة أية شوكة فيها خلدشتك (٢٩) .

وقتلته الناس رغم أنه كان رجلا شريفاً ، ظريفاً ، مهذباً ، مثقفاً ، طيباً ، القلب ، مشهوراً باسم سيموس اللطيف . وما من شك في أن من أسباب دعوته السافرة للسعى وراء اللذة أنه كان يسر من التشهير بالكبار الفاسدين من أهل المدن . وقد كشف عن خليقته بتبجيل سسقراط ، وحبه للفلسفة (\*) ، واعترافه بأن أجل منظر في الحياة ، وهو منظر الرجل الفاضل الذى يشق طريقه مطمئنا واثقا من نفسه بين الأندال (٣١) .

وقال وهو على فراش الموت ( ٣٥٦ ) إن أعظم تراث يتركه لابنته

---

(\*) يقول أرسطوس إن مثل الذين يميلون للفلسفة في تعليمهم « كمثل الذين جاءوا يخطبون بطنى ؛ فقد ... وجدوا أن كسب الخاديات أسهل لهم من زواج السيدة (٣٠) » .

أريتي Arete هو أنه علمها ألا ترى قيمة ما لشيء تستطيع أن تستغنى عنه ؟ (٢٢)  
وهو استسلام منه لديوجانس عجيب . وقد خلفته ابنته في رياسة مدرسة  
قورينة وألفت أربعين كتاباً ، وكان لها تلاميذ ممتازون ، وحبها مدينتها قبرية  
مشرفة هي : « ضياء هلاس (٢٣) » .

## ٢ - ديوجين ( ديوجانس )

ووافق أستانس على نتيجة هذه الفلسفة وإن لم يوفق على مناقشاتها ،  
واستخلص من أقوال سقراط نفسه فلسفة للحياة قائمة على التتشف . وكان  
مؤسس المدرسة الكلية ابن مواطن أثيني وأمة تراقيا ، وحارب ببسالة في  
يوم تنغارا عام ٤٢٦ ، ودرس زمنا مع غورغياس وپروذكوس ، ثم أنشأ  
بعدئذ مدرسته ، ولكنه بعد أن سمع مناقشات سقراط ، ذهب ومعه تلاميذه  
ليتلقي فلسفة الذي يفوقه سنا . وكان مثل أودكسوس يعيش في پيرية ، ويسير  
إلى أثينة مشيا على قدميه كل يوم تقريبا . ولعله كان حاضرأ حين كان سقراط  
( أو أفلاطون ) يناقش بخطيباً ظريفاً في مشكلة اللذة .

سقراط : هل تظن أن الفيلسوف يجب أن يهتم بملذات . . . الأكل  
والمشرب ؟

سمياس : لا ، من غير شك .

سقراط : وما قولك في لذات الحب - هل يجب عليه أن يهتم بها ؟ .

سمياس : لا ، يجب ألا يهتم بحال من الأحوال .

سقراط : وهل يجوز له أن يفكر فيما عدا ذلك من طرق المتعة الجسمية -

كالاحصول على الملابس الغالية ، أو الأحذية وما إليها من زينة

الجسم ؟ أليس الواجب عليه ، بدل أن يهتم بهذه الأشياء ، أن

يحتقر كل ما تتطلبه الطبيعة ؟ .

سمياس : من واجبي أن أقول إن الفيلسوف الحق هو الذي يحتقرها (٢٤)

هذا هو جوهر الفلسفة الكلية : أن تقتصر حاجات الجسم على الضرورات المحضه حتى تكون الروح حرة قدر المستطاع . وقد استمسك أنتستانس بحرفية النظرية ، وأصبح كأنه راهب فرنسي يوناى بلا دين . وكان شعار أرسطوس هو : « إني أملك ولكن أحداً لا يملكني » أما شعار أنتستانس فقد كان : « إني لا أملك حتى لا يملكني أحد » . ولم يكن عنده مال (٣٥) ، وكان يرتدى ثوباً خلقا غيره به سقراط بقوله : « إني أستطيع أن أرى غرورك يا أنتستانس من خلال ثقوب ثوبك (٥٥) » وإذا ضربنا صفحا عن هذا فقد كان عيبه الوحيد هو تأليف الكتب ؛ وقد ترك منها ثمانية ، أحدها تاريخ للفلسفة . ولما مات سقراط اضطلع أنتستانس بواجب تدريس الفلسفة لطلبيها واختار موضعاً لمحاضراته ساحة « كلب البحر للتدريب الرياضى » ، وكان سبب اختيارها أنها مخصصة لأفراد الطبقات الدنيا ، أو الغرباء ، غير الشرعيين ، وغلب اسم الكلبى على المدرسة بسبب مكان وجودها لا بسبب العقيدة التي تدرس فيها (٥٧) ، وكان أنتستانس يرتدى ثياب العمال ، ولا يتقاضى أجراً على قيامه بالتدريس ، ويفضل أن يكون تلاميذه من الفقراء ، ويطرد من مدرسته بلسانه أو عصاه كل من يعيش معيشة الفقراء ولا يتحمل شظف العيش .

وأبى في أول الأمر أن يقبل ديجين ضمن تلاميذه ، فلما أصر ديجين وصبر على الإهانة ، قبله ، فأذاع التلميذ نظريات أستاذه في جميع أنحاء هلاس بأن اتبع تعاليمه في معيشته لا يحيد عنها قيد شعرة . لقد كان أنتستانس في أصله نصف رقيق وكان ديجين رجلاً مصرفياً مفلساً من سينوب ، اضطرتة شدة الحاجة إلى التسول وسره أن يعلم أن هذا جزء من الفضيلة ، والحكمة ، فلبس أثواب المتسولين ، وحمل جرابهم وتوكل على عصاهم ، وعاش وقتاً ما داخل قصبة في ساحة معبد سيبيلى في أثينة (٢٨) . وكان يحسد الحيوان على حياته البسيطة ويحاول أن يحذو حذوه ، ينام على الأرض ، ويطعم . مما يستطيع الحصول عليه أينما وجدته ، ويؤكدون لنا أنه كان

يقضى حاجة الطبيعة ومراسم الحب على مرأى من جميع الناس<sup>(٣٩)</sup> . ولما رأى طفلاً يشرب الماء بيديه أتى هو الآخر كوب الماء<sup>(٤٠)</sup> ؛ وكان في بعض الأحيان يحمل شمعة أو مصباحاً ويقول إنه يبحث بهما عن رجل<sup>(٤١)</sup> . ولم يسيء في حياته إلى إنسان ، ولكنه رفض أن يعترف بالقوانين ، وأعلن قبل الرواقين بزمن طويل أنه مواطن عالمي (Kosmopolites) . وكان يطوف بالبلاد على مهل ، ونسمع أنه أقام بعض الوقت في سراقوصة ، وقبض عليه القراصنة في بعض أسفاره وباعوه عبداً لأكسنياديس صاحب كورنثة ؛ ولما سأله سيده عما يستطيع أن يؤديه من الأعمال قال : « إنه يستطيع أن يحكم الرجال » ، فاتخذ أكسنياديس مريباً لأبنائه ، ومشرفاً على شئون قصره ، وأحسن ديجين القيام بكلا العملين إحساناً جعل سيده يطلق عليه لقب « العبقري الصالح » ، ويعمل بمشورته في كل شيء . وظل ديجين يحيا حياته البسيطة لا يجيد عنها قط حتى أصبح بعد الإسكندر أشهر رجل في بلاد اليونان .

وكان متصنعاً بعض الشيء ، وما من شك في أنه كان يحب الشهرة ، وكان بارعاً في الجدل ، ويقول سميحاً إنه لم يغلب قط في مناقشة<sup>(٤٢)</sup> . وكان يهدف حرية الكلام بأنها أعظم الطيبات ، وقد أفاد منها كثيراً هي والمزاج الخشن ، والفكاهة التي لم تكن تعجزه قط . وعنف ذات يوم امرأة تررع وتسجد أمام صورة مقدسة بأن سألتها ؛ « ألا تخافين أن تكوني في هذا الوضع وقد يكون من ورائك إله من الآلهة ، لأن الآلهة يملأون كل مكان<sup>(٤٣)</sup> ؟ » ، ولما رأى ابن حظية يرمي جماعة من الناس بحجر قال : « احذر أن تصيب أبائك<sup>(٤٤)</sup> » . وكان يكره النساء ، ويحقر من الرجال من يسلكون مسلك النساء ، من ذلك أن شاباً كورنثياً جاءه متعظراً متأنقاً في ثيابه الغالية يسأله سؤالا فأجابه بقوله : « لن أجيبك عن سؤالك حتى تخبرني : أولد أنت أم بنت<sup>(٤٥)</sup> ؟ » .

والعالم كله يعرف قصته مع الإسكندر حين التقى بالفيلسوف في كورنثة

قائماً في الشمس وقال له : « أنا الإسكندر الأكبر » ؛ وأجابه الفيلسوف بقوله : « وأنا ديجين الكلب » . وقال له الملك : « أسألك أي شيء تريد » ، فأجابه : « ابتعد حتى لا تحجب عني الشمس » . وقال الجندی الشاب : لو لم يكن أنا الإسكندر لتميت أن أكون ديجين<sup>(٤٦)</sup> ؛ ولسنا نعرف أن ديجين قد رد على هذه التحية . ويراد بنا أن نعتقد أن الرجلين توفيا في يوم واحد من أيام عام ٣٢٣ الإسكندر في بابل وهو في سن الثالثة والثلاثين ، وديجير في كورنثة بعد أن جاوز التسعين<sup>(٤٧)</sup> . وقد وضع الكورنثيون فوق قبره كلباً من الرخام ؛ وأقامت له سينوب التي نفتت نصباً تذكارياً تخليداً للذكراه .

وليس ثمة شيء أوضح من الفلسفة الكلية : فهي لم تعتمد إلى المنطق إلا ريثما تلخص نظرية المعرفة التي كان أفلاطون يجرها عقول العلماء في أثينة ، كذلك كانت الميتافيزيقا في نظر الكليين عبثاً عقياً ، وكانوا يقولون إن من واجبتنا ألا ندرس الطبيعة لنفس العالم بهذه الدراسة ، وهو أمر مستحيل ؛ بل لنعلم حكمة الطبيعة ونسترشد بها في الحياة . والفلسفة الوحيدة الحقة هي فلسفة الأخلاق ، والفرض من الحياة هو السعادة ، ولكن هذه السعادة لا تكون في طلب اللذة ، بل في الحياة الفطرية البسيطة المستقلة . قدر المستطاع عن المساعدات الخارجية ؛ ذلك أن اللذة ، وإن كانت عملاً مشروعاً إذا أتت نتيجة كدح الإنسان وجهوده الخاصة ، ولم يعقبها شيء من الندم ووخز الضمير<sup>(٤٨)</sup> ، كثيراً ما تفلت منا أثناء السعي إليها ، أو تنجيب ورجاعنا فيها بعد أن تناولها ؛ ومن أجل هذا فإن الأخلاق بنا أن نعدّها شراً لاخيراً . والسبيل الوحيدة إلى السعادة الباقية هي أن يحيا الإنسان حياة معتدلة فاضلة . والثروة تفسد الطمأنينة والسلام ، والشهوة الحاسدة تأكل النفس كما يأكل الصدأ الحديد ، والاسترقاق عمل ظالم ولكنه ليس عملاً خطيراً ؛ والرجل الحكيم يسهل عليه أن يجد السعادة في الرق كما يجدها في الحرية ، لأن حرية النفس هي الحرية الحقة . ويقول ديجين إن الآلية

قد وهبت الإنسان الحياة السهلة المريحة ، ولكن الإنسان هو الذى عقدها بالتلهف على الترف . وليس معنى هذا أن الكليين كانوا شديدى الإيمان بالآلهة ، وشاهد ذلك أن قسيماً أخذ يعدد لأنتستانس ما يتمتع به المستمسكون بأسباب الفضيلة من خير كثير بعد وفاتهم ، فسأله الفيلسوف : « ولم إذن لا تموت ؟ » (٤٩) ، وكان ديجين يسخر من الطقوس الدينية الخفية ، ويقول عن القرابين التى قربها فى سمثريس من نجوا من الموت بعد أن حطمت سفينتهم : « لو أن هذه القرابين قد هلكوا بالدين هلكوا لا الذين نجوا لكنت أكثر من هذه عدداً » (٥٠) ، وكان كل شيء فى الدين عدا الاستمسك بالفضيلة يبدو للكليين أوهاماً وخرافات ، وهم يرون أن جزاء الفضيلة يجب أن يكون هو الفضيلة نفسها ، وأن من الواجب ألا يكون هذا الجزاء موقوفاً على عدالة الآلهة . وقوام الفضيلة هو الأكل ، والتملك ، والحد من الرغبات قدر المستطاع ، والاقتصار على شرب الماء . وعدم الإساءة لأى إنسان : وسئل ديجين : وكيف يستطيع الإنسان أن يدفع عنه أذى عدوه ؟ فأجاب بقوله : « بأن يثبت أنه شريف مستقيم » (٥١) . والشهوة الجنسية دون غيرها هى التى كانت تبدو للكليين غريزة معقولة ، وكانوا يتجنبون الزواج بوصفه رابطة خارجية ولكنهم كانوا يحمون البنايا . وكان ديجين يدعو إلى الحب الحر الطليق ، وإلى شيوعية الزوجات (٥٢) ، وكان أنتستانس يطلب الاستقلال فى كل شيء ، ومن أجل ذلك كان يشكو من أنه لا يستطيع أن يشبع جوعه بمفرده كما يستطيع أن يشبع شهوته الجنسية على هذا النحو (٣٥) . وإذا كان الكلييون قد قرروا أن الشهوة الجنسية شهوة سوية طبيعية كالجوع ، فقد أعلنوا أنهم لا يفقهون لم ينجل الناس من إشباع إحدى الرغبتين جهرة أمام الناس كما يشبعون الأخرى (٥٤) . ومن رأيهم أن الإنسان يجب أن يكون مستقلاً فى كل شيء حتى فى الموت نفسه ،

فيختار لنفسه مكان موته وزمانه ؛ وعندهم أن الانتحار عمل مشروع ، ويقول بعضهم إن ديجين قتل نفسه بأن أمسك عن التنفس (٥٥) .

وكانت الفلسفة الكليية جزءاً من الحركة التي تهدف إلى « الرجوع إلى الطبيعة » ، وهي الحركة التي قامت في أثينة في القرن الخامس رداً على ما أحدثته الحضارة المعقدة من ملل في النفوس وعدم توازن في شئون الحياة . ذلك أن الناس ليسوا متحضرين بالفطرة ، وهم لا يحملون قيود الحياة المنظمة ، إلا لأنهم يخشون مغبة العقاب والوحدة . وكانت الصلة بين ديجين وسقراط شبيهة بعض الشبه بالصلة التي بين روسو وقلتير : فقد كان يرى أن الحضارة لا خير فيها ، وأن بروميثيوس قد استحق أن يصلب لأنه جاء به إلى نبي الإنسان (٥٦) . وكان الكلييون ، كما كان الرواقيون ، وكما كان روسو في العصر الحديث ، يجعلون مثلهم الأعلى هو « الشعوب الطبيعية » (٥٧) ؛ وقد حاول ديجين أن يأكل اللحم النيئ لأن طهو الطعام عمل غير طبيعي (٥٨) ، ويظن أن أحسن المجتمعات هو المجتمع الخالي من أسباب الخلداع ومن القوانين .

وكان اليونان يسخرون من الكلييين ، ويصبرون عليهم صبر المجتمع في العصور الوسطى على القديسين . وقد أصبحوا بعد ديجين هيئة دينية من غير دين ، انحلوا الفقر قاعدة وأساساً لعقيدتهم ، وكانوا يعيشون من الصدقات ، وينفسون عن عزوبتهم بالشوعية الجنسية ، وافتتحوا مدارس لتعليم الفلسفة . ولم تكن لهم بيوت ، بل كانوا يعملون وينامون في الطرقات أو مداخل المعابد . وانتقلت العقائد الكليية على أيدي استلبو Sillpo وأقراطيس Crates تلميذي ديجين إلى العصر الهلنستي ، وكانت فيه أساس الرواقية ، واختفت المدرسة بوصفها ذات كيان مستقل حوالى القرن الثالث ، ولكنها ظلت ذات أثر قوى في التقاليد اليونانية ، ولعلها عادت

إلى الوجود في شخص الأسينين(\*) في بلاد اليهود ، والرهبان في مصر ،  
في أوائل عهد المسيحية . وليس في مقدور العلماء أن يقرروا حتى الآن  
مقدار ما تأثرت به هذه الحركات كلها بأمثالها من حركات الطوائف المختلفة  
في الهند أو ما كان للثانية من أثر في الأولى . وإن الذين يدعون للرجوع إلى  
الطبيعة في أيامنا هذه ، لهم الأبناء الدهنيون لأولئك الرجال والنساء الذين  
عاشوا في بلاد الشرق أو اليونان في الأيام الخالية ، والذين ملوا القيود  
الضيقة غير الطبيعية ، وظنوا أن في وسعهم أن يعودوا إلى الحيوانات  
ويعيشوا بينها ، واعتقادنا أنه ليس ثمة حياة كاملة خالية من هذه اللوثة  
الحضرية ؛

---

(٥) جماعة دينية قامت بين اليهود الأقدمين ، كان أعضاؤها يعيشون عيشة البرزلة والتشف  
وكانت الملكية عندهم مشاعة . ( المترجم )

## الفصل الثالث

### أفلاطون

#### ١ - المعلم

لقد تأثر أفلاطون نفسه بالمبادئ الكلية . وشاهد ذلك أنه يصف في المقالة الثانية من الجمهوريه<sup>(٥٩)</sup> مدينة فاضلة تعيش عيشة فطرية شيوعية ، ونستشف من هذا الوصف عطفه على هذه المدينة وحبه إياها . نعم إنه يكتفى بقبولها ولا يدعو إليها ، ويصور دولة « في الدرجة الثانية بعدها » ، ولكنه حين يعمد إلى تصوير ملوكه — الفلاسفة نستشف في هذه الصورة الحلم الكلي ، فنجد رجالا لا أملاك لهم ولا زوجات ، يستمسكون بالحياة البسيطة والفلسفة الراقية ، قد استحوذوا على حصن أجل خيال في تاريخ اليونان . وكانت الخطة التي رسمها أفلاطون لإيجاد أرسقراطية شيوعية محاولة باهرة من رجل محافظ ثرى للتوفيق بين احتقاره للديمقراطية وبين مثالية زمانه المتطرفة .

وكان ينتمى إلى أسرة عريقة يرجع أصلها من ناحية أمه صولون ومن ناحية أبيه إلى ملوك أثينة الأولين ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أنها ترجع من هذه الناحية إلى بسيدن إله البحر<sup>(٦٠)</sup> . وكانت أمه أخت خرميدس Charmide وابنة أخ أفريتياس ، ومن أجل هذا يكاد كره الديمقراطية أن يكون متأصلا في دمه . وقد سمي أرسقليس Aristocles — أى الأحسن الشهير — ، وبرع الشاب في جميع نواحي الحياة تقريبا ، فنبغ في الموسيقى ، والرياضيات ، والبلاغة والشعر . وافتتحت النساء ، والرجال بلاريب ، بجمال طلعتة ؛ وصارع في الألعاب البرزخية ، ولقبوه من قبيل السخرية فلاتون Platon أى العريض لامتلاء جسمه وقوة بنيته ؛ وحارب

في ثلاث معارك ، ونال جائزة في الشجاعة<sup>(٦١)</sup> . وكتب فكاهات شعرية وغزلا ، ومأساة رباعية<sup>(\*)</sup> ؛ وبينما كان يتردد بين الشعر والسياسة لا يعرف أيهما يختار طريقاً له في الحياة ، إذ افتتن وهو في سن العشرين بسقراط ؛ وما من شك في أنه كان يعرفه من قبل ، لأن الفيلسوف الكبير كان صديقاً لحاله خرميدس ؛ ولكنه لما بلغ هذه السن كان يستطيع أن يفهم تعاليم سقراط ويستمتع بمنظر الرجل الشيخ وهو يقذف بأفكاره في الهواء كالبهلوان ، مرتكباً على أسنة أسلته . فما كان منه إلا أن أحرق قصائده ، ونسى يوربديز والألعاب الرياضية ، والنساء ، وتبع المعلم الشيخ كأنه سحره أو نومه تنويعاً مغنطيسياً . ولعله كان يكتب مذكرات في كل يوم . لأنه كان يشعر كما يشعر الفنان المرهف الحس بما سيكون لهذا الشيخ البطين المشوه المحبوب من شأن عظيم في مستقبل الأيام .

ولما بلغ أفلاطون الثالثة والعشرين من عمره شبت ثورة المحافظين في عام ٤٠٤ بقيادة جماعة من أقربائه ، وشهد أيام الإرهاب الأجركي العصبية ، وشجاعة سقراط في تحدى الثلاثين ، وموت أقرتياس وخرميدس ، وعودة الديمقراطية ، ومحكمة سقراط وموته ، وبدا العالم كله يتصدع ويتهدم حول هذا الشاب الذي كان من قبل لا يتطرق الهم إلى قلبه ؛ ففر من أثينة التي بدت في نظره كأنها مأوى الشياطين ، ووجد بعض الراحة في ميغارا في بيت إقليدس ، ثم في قورينا ولعله كان فيها مع أرسطيوس . ويظهر أنه سافر منها إلى مصر حيث درس على الكهنة العلوم الرياضية والمعارف التاريخية الشعبية<sup>(٦٢)</sup> . ونراه مرة أخرى في أثينة حوالي عام ٣٩٥ ، وبعد عام من ذلك الوقت حارب دفاعاً عن كورنثة . وبدأ أسفاره مرة أخرى حوالي عام ٣٨٧ ، ودرس فلسفة فيثاغورس مع أرخيتاس

(٥) المأساة الرباعية مجموعة من أربع مسرحيات ، ثلاث مأس وراية هجائية ، كانت تمثل مجتمعة في عيد ديونيشس في أثينة . ( المترجم ) .

في تاراس ومع تياوس في لكري ، ثم انتقل إلى صقلية ليشاهد بركان إتنا ،  
وارتبط برباط الصداقة مع ديون طاغية سراقوصة ، وقدّم لدينسوس  
الأول ، وبيع بيع الرقيق ، ثم عاد سالماً إلى أثينة في عام ٣٨٦ . ولما رفض  
أنسريس Anniceris الثلاثة الآلاف درخمة التي جمعها أصدقاؤه ليفتدوه بها ،  
ابتاع له هؤلاء الأصدقاء بهذا المال أيكة للتنزه في ضواحي المدينة وأطلقوا  
عليها اسماً مشتقاً من إلهها المحلي أكديموس Academus<sup>(٦٣)</sup> ، وفيها أنشأ  
أفلاطون الجامعة التي قدر لها أن تكون فيما بعد مركز بلاد اليونان العقلي  
تسماته عام كاملة(\*)

وكان المجمع العلمي ( الأكاديمية ) من الناحية الفنية إخوة دينية  
( ثاسيوس Thasios ) مخصصاً لعبادة ربات الشعر والفن ، ولم يكن الطلاب  
يؤدون فيه أجوراً عن التعليم ، ولكنهم كانوا في الغالب من أبناء الأشر  
الغنية ، ولذلك كان ينتظر من آبائهم أن يهبوا المعهد هبات قيمة .  
وفي ذلك يقول سويداس إن الأغنياء كانوا يوصون قبل وفاتهم لأعضاء  
المدرسة بما يكفل لهم أن يجيوا حياة الفلاسفة غير مضطرين إلى العمل  
لكسب أقواتهم<sup>(٦٣)</sup> . ويقال إن دينسوس الثاني وهب المعهد ثمانين  
وزنة ( ٤٨٠.٠٠٠ ريال أمريكي )<sup>(٦٤)</sup> - وفي هذا ما قد يفسر صبر  
الفيلسوف على هذا الملك ، وكان الشعراء الفكهون في ذلك الوقت  
يهجون الطلاب بقولهم إنهم أشخاص متصنعون في أخلاقهم متطرفون في  
ملايهم - ذوو قلائس رشيقة وعصى : وستر قصيرة أو أردية جامعية<sup>(٦٥)</sup> .  
ألا ما أقدم تقاليد إيتن والأنواب الجامعية السوداء ! وكانت النساء يقبلن  
في المجمع مع الرجال ، لأن أفلاطون بقي من هذه الناحية متطرفاً في

---

(\*) ولم تكن هي أولى جامعات بلاد اليونان . ذلك أن مدرسة أقرطونا الفيثاغورية  
كانت منذ عام ٥٢٠ تقدم مناهج دراسية مختلفة لمجتمع علمي متحد النزعة ، كأكات مدرسة  
إسقاط قائمة قبل مجمع أفلاطون العلمي بثان سنين .

أفكاره تطرفا جعله من أقوى أنصار المرأة ، وكانت أهم موضوعات  
الدرس هي العلوم الرياضية والفلسفة ، وقد كتب على المجمع هذا التحذير :  
« لن يدخل هذا المكان إنسان بلا هندسة » ، ولعل قدراً كبيراً من  
الحساب كان شروط القبول في المجمع . وكان معظم ما حدث من التقدم  
في العلوم الرياضية في القرن الرابع على أيدي رجال من درسوا فيه . وكان  
منهاج الرياضة يشمل الحساب ( نظرية العدد ) والهندسة الراقية ، والفلك ،  
« الموسيقى » ( ولعل هذه كانت تتضمن الأدب والتاريخ ) ، والقانون ،  
والفلسفة<sup>(١٦)</sup> ، وكانت الفلسفة الأخلاقية والسياسية آخر الدراسات في هذا  
المناهج ، هذا إذا كلان أفلاطون قد أخذ بالنصيحة التي ينطق بها سقراط  
في معرض الدفاع إلى حد ما عن أنيتوس وملاتوس :

سقراط : إنك تعرف أن ثمة مبادئ معينة في العدالة والخير تعلمناها  
في طفولتنا ، ونشأنا تحت رعايتها الأبوية ، نطيعها ونعظمها :

أجلوكون : هذا صحيح .

سقراط : وثمة أيضاً مبادئ مناقضة لها وعادات من أنواع السرور  
تتعلق أرواحنا وتجلبها إليها ، ولكنها لا أثر لها فيمن لديهم أي إحساس  
بالحق ، ومن لا ينقطعون عن إجلال تعاليم آبائهم وطاعتها .

أجلوكون : حق .

سقراط : فإذا كان الإنسان في هذه الحال وسألته روحه السائلة . ما هو  
الشيء الجميل الشريف ؟ وأجاب بأن ذلك هو الذي يأمر به القانون ،  
نقضت المجمع أقوال المشرع ، فاضطر إلى الاعتراف بأن لا شيء فيه  
من الجمال أكثر مما فيه من القبح ، أو فيه من العدالة والطيبة أكثر مما  
فيه من نقيضهما ، وإلى الاعتراف بأن هذا بعينه ينطبق على جميع آرائه  
التي نلج عليها الزمن جلالاً وتعظيماً ، إذا حدث هذا فهل تظن أنه سيظل  
يعظم هذه التعاليم ويطيعها ؟ .

أجلوكون : هذا مستحيل .

سقراط : وإذا لم يعد يظنّها كما كان يظنّها من قبل شريفة وطبيعية ، ثم عجز عن معرفة الحق ، فهل ينتظر منه أن يحيا حياة غير الحياة التي تتملق شهواته ؟

أجلوكون : ذلك ما لا ينتظر منه .

سقراط : وهل ينقلب بعدئذ من إنسان طائع للقوانين إلى إنسان خارج عليها ؟ .

أجلوكون : بل اريب

سقراط : وإذن فلا بد من الحذر الشديد في إدخال مواطنينا الذين لا يتجاوزون سن الثالثة والثلاثين في الجلد . . . إذ يجب ألا يسمح لهم بتذوق هذه اللذة العزيزة قبل الأوان ، هذا شيء ينبغي تجنبه بنوع خاص ، لأن الشبان ، كما رأيت ، إذا تذوقوا الجلد بدعوا من فورهم يجادلون حبا في الجلد ، ولا يتفكرون يعارضون غيرهم ويدحضون حججهم. تقليدا منهم لمن ينقضون حججهم هم ؛ فهم في هذا أشبه بصغار الكلاب التي تسرها أن تشد أثواب كل من يقرب منها وتمزقها .  
أجلوكون : نعم إن هذا هو الذي يسرها .

سقراط : وإذا ما غلبوا الكثيرين من الناس وغلبهم الكثيرون اندفعوا بسرعة وعنف إلى حال لا يؤمنون معها بأى شيء كانوا يؤمنون به من قبل ، ومن . . . ثم تسوء سمعة الفلسفة عند سائر الناس  
أجلوكون : هذا هو عين الحق .

سقراط : ولكن الرجل إذا بدأ يكبر ، فإنه لا يرتكب هذا الضرب من الأعمال الجنونية ؛ بل يحذو حذو الرجل المنطقي الذي يبحث عن الحقيقة ، لا حذو الخصيم الذي يعارض لما يجده في المعارضة من لذة ؛ وإن لإجلال الناس خلقه سيزيد من شرف هذا السعي بدل أنه ينقص منه (٧٦) .

وكان أفلاطون وأعدائه يعلمون الناس بالمحاضرات والحوار ، ويعرض

المسائل على الطلاب لحلها؛ وكان من هذه المسائل إيجاد : « الحركات المنتظمة المتساوية التي يمكن بالاستناد إليها تحليل حركة الكواكب » (٢٨) ، ولعل أودكسوس وهرقليدس قد وجدا في هذه البحوث ما يحفزهما إلى العمل . وكانت المحاضرات علمية ؛ وكانت في بعض الأحيان غيبية لآمال من جاؤوها طلبا للكسب المادى ، ولكن تلاميذ أرسطو ودمستين وليقورغ ؛ وهيريلس ، وأكسانوقراطيس تأثروا بها أعمق التأثر ونشروا في كثير من الأحيان ما كتبوه عنها من مذكرات . وقال أنتفانس متفكها إن الكلمات التي كان ينطق بها أفلاطون أمام طلابه في شبابه لم يفهموها إلا في شيخوختهم ، كما كانت الألفاظ في إحدى المدن القائمة في أقصى الشمال تتجمد حين تخرج من أفواه المتكلمين ثم تسمع في الصيف حينما تسبح (٢٩) .

## ٢ - الفنان

يقر أفلاطون نفسه أنه لم يكتب في حياته رسالة علمية (٣٠) ، ويشير أرسطوطاليس إلى ما كان يلتقى من العلوم في المجمع العلمى بقوله « تعاليم » أفلاطون « غير المكتوبة » (٣١) . ولسنا نعرف مدى اختلاف هذه التعاليم عما ورد في المحاورات (٣٢) ، وأكبر الظن أن هذه المحاورات كانت في بادئ الأمر وسيلة للترويح عن النفس ، وأنها كانت تلقى بطريقة فكها إلى حد ما (٣٣) . ومن سمريات التاريخ أن المؤلفات الفلسفية التي تدرس في الجامعات الأوربية والأمريكية والتي تلقى فيها أعظم التقدير والإجلال في هذه الأيام قد ألفت لتقرب الفلسفة من أذهان غير العلماء وربطها بإحدى الشخصيات المعروفة . ولم تكن محاورات أفلاطون أول ما كتب من الحوار الفلسفى ، فقد اتبع زينون الإلباتى وكثيرون غيره هذه الطريقة ذاتها (٣٤) ، ونشر تيمن الأثينى قاطع الجلود بطريقة

---

(٣٠) إن من فقرات في كتب أرسطو ما يوحي بأنه كان يدهم أفلاطون وخاصة نظريته في الأفكار هل غير ما نفهمه نحن من المحاورات .

الحوار أحاديث سقراط التي كانت تدور في حانوته (٧٤) . وكانت المحاورات كما أوردها أفلاطون قطعة أدبية لا تاريخية ؛ فهو لا يدعى أنه ينقل لنا نصا دقيقا للأحاديث التي كانت تجري قبل أن يكتبها بثلاثين عاما أو خمسين ، بل ولا يدعى أنه يحرص على أن يكون ما فيها من إشارات منسقا غير متناقض بعضه مع بعض . وذهل غورغياس كما ذهل سقراط حين سمعا الألفاظ التي أنطقهما بها الفيلسوف المسرحي (٧٥) . وقد كتبت المحاورات مستقلة كل منها عن الأخرى ، ولعلها كتبت في فترات متباعدة نباعدا طويلا ، وليس من حقنا أن نرتاع لما فيها من سهو ، كما ليس من حقنا أكثر من هذا أن نرتاع لما فيها من آراء متناقضة . وليس ثمة خطة موضوعة للتأليف بينها كلها وجعلها وحدة منسقة ، اللهم إلا البحث المتواصل الذي يقوم به عقل ينمو ويتطور تطوراً واضحاً ملموساً عن الحقيقة التي لا يستطيع الحصول عليها أبداً (\*) .

والمحاورات مركبة بمهارة وإن كانت لا ترقى إلى الدرجة الوسطى . وهي تصور الأفكار تصويراً مسرحياً ، وترسم صورة منسقة لسقراط تدل على حب أفلاطون الشديد له ؛ ولكنها قلما تدل على وحدة الأفكار أو تسلسلها ، وكثيراً ما تنتقل من موضوع إلى موضوع وتسم القارئ في كثير

---

(\*) ليس في وسعنا أن نحدد تواريخ المحاورات الست والثلاثين أو أن نصنفها تصنيفاً علمياً لا مطعن فيه . غير أن في وسعنا أن نقسمها تقسيماً منسقا إلى الأقسام الآتية : (١) مجموعة أولى وأهمها الأبولوجيا ، وأقريطون ، وليسيذ ، وأيون ، وغرميدس ، وأقراطيلوس ، ولوطيفرون وأوتيدموس . (٢) ومجموعة وسطى وأهمها غورغياس ، وپروتاغوراس ، وفيدون ، ومعرض الآراء (سمپوزيوم) ، وفيدروس ، والجمهوريّة (٣) ومجموعة متأخرة وأهمها پرميندس ، وتيتياتوس ، والسوفسطائي ، والسياسي ، وفيلابوس ، وتيماس واتروانين . وأكبر الظن أنه ألف المجموعة الأولى قبل أن يبلغ الرابعة والثلاثين من العمر ، والثانية قبل الأربعين ، والثالثة بعد الستين ، وأنه كان يخصص الستين التي بين كل مجموعة والتي تليها للنجم العلمي .

من أجزائها لأنه يورد الحديث بمعناه لا بلفظه - فيجعل رجلا واحداً يتقل سائر أحاديث غيره من الناس . ويقول سقراط إن ذاكرته و غاية في الضعف » (٧٧) ؛ ولكنه مع ذلك يتلو على صديق له عن ظاهر قلب أربعا وأربعين صفحة من نقاش جرى في أيام شبابه بينه وبين پروتاغوراس . ومما يضعف معظم المحاورات أنها يعوزها المتكلمون الأقوياء القادرون على أن يردوا على سقراط « بغير نعم » أو ما في معناها . ولكن هذه العيوب تختفي في تألق اللغة ووضوحها ، وما في الموقف ، والتعبير والفكرة من فكاكة ، والعالم الحي وما فيه من مختلف الشخصيات البشرية الحقيقية ، وما تفتحه هذه المحاورات من نوافذ توصل إلى العقل العميق النبيل . وفي وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه المحاورات من قيمة عظيمة عند الأقدمين ، وإذا ذكرنا أنها أكل نتاج عقلى وصل إلينا من أى مؤلف يونانى ، وإن شكلها ليضعها في تاريخ الأدب في منزلة لا تقل سمواً على المنزلة التى يضعها فيها موضوعها في تاريخ الفكر .

وأقدم المحاورات من خير الأمثلة في جدل الشباب الخصيم الذى يتدب به في الفقرة التى أوردناها من قبل ، ولكن الصورة الساحرة التى تصور بها هذه المحاورات الشباب الأثينى تذهب بما فيها من عيوب من هذه الناحية . ومعرض الآراء هو خير ما كتب من نوعه في أدب العالم كله ، وهو خير مقدمة لكتب أفلاطون ، وإن ما فيه من تصوير مسرحى للمناظر ( ونورد على سبيل المثال قول أجاثون Agathon لخدمه : « تصوروا أنكم أرباب المنزل وأنى أنا . وأصحابى ضيوفكم » (٧٨) ) ، والصورة الحية التى رسمها لأرسطوفان « وقد تملكه الفواق من كثرة الأكل » وقصته المرححة عن ألقبيادس الثل الذى افتضح أمره بين الناس ، وأهم من هذا كله براعته فى التأليف بين الواقعية القاسية فى صورة سقراط وبين فكرته السامية عن الحب ، نقول إن هذه الصفات تجعل معرض الآراء آية أدبية رائعة فى فن النثر . أما الفيديون فأقل من معرض الآراء قوة وأكثر منه جمالا . فالنقاش الرئيسى فيه ، مهما يبلغ من الضعف ، نقاش أمين لا التواء فيه ولا مغالطة ، يبيح لصاحب الرأى

المخالف فرصة مكافئة لفرصة مناظره ، ويتدفق تدفقاً أكثر سلاسة وسط مناظر يتغلب هلوؤها على ما فيها من مأس ، حتى أن موت سقراط نفسه ليشبه اختفاء النهر عن العين حين يلتف عند أحد المنحنيات . ويدور بعض ما يشتمل عليه فيدروس من حوار على شواطئ نهر إيليبوس Itilissus حين يبرد سقراط وتلميذه أقدامهما في ماء النهر . ولا حاجة إلى القول بأن أعظم المحاورات كلها على الإطلاق هي الجمهورية لأنها أكل عرض لفلسفة أفلاطون ، وهي في أول أجزائها صراع مسرحي بين الأشخاص والآراء . والبارمنيدس أسوأ مثل للتلاعب المنطقي في الأدب كله ، كما أنه أجراً مثل في تاريخ الفلسفة للمفكر الذي يفند أحب العقائد إلى نفسه - نغني نظرية الأفكار - تفنيدياً لا يقوى أحد على الرد عليه ودحض حججه . وفي المحاورات الأخيرة تضعف قدرة أفلاطون الفنية ، فتضمحل شخصية سقراط ؛ وتفقد الميتافيزيقا شعريتها ، وتفقد السياسة « مثل الشباب العليا » حتى إذا ما وصلنا إلى القوانين ، استسلم الرجل المتعب المنهوك القوي الذي ورث جميع ثقافة أئينة على اختلاف مناحيها إلى إغراء اسبارطة ، وطلق الحبة ، والشعر والفن والفلسفة نفسها .

### ٣ - الميتافيزيقى

لم يتبع أفلاطون فيما خلفه من أفكار خطة منظمة ، وإذا لخصنا نحن آراءه ووضعنا الهارثوس موضوعات مختلفة كالمنطق ، وما وراء الطبيعية ، والأخلاق ، وعلم الجمال ، والسياسة ، ليسهل علينا أن نتحدث عنها حديثاً منظماً ، فإن من الواجب أن نذكر أن أفلاطون نفسه كان شاعراً مغرقاً في شاعريته إلى حد يمنعه أن يقيد أفكاره ويمجدها بحدود . وإذا كان أفلاطون شاعراً فقد كان المنطق أكثر ما يعترض سبيله من الصعاب ، فهو يجول هنا وهناك يبحث

عن التعاريف ويضل السبيل في التشبهات التي تعرضه لأشد الأخطار ؛ ثم دخلنا في تيه ، ولما حسبنا أننا قد وصلنا إلى آخره ، رأينا أنفسنا مرة أخرى في بدايته ، وكان علينا أن نعود إلى البحث عن مخرج (٧٩) ، ويختم حديثه هذا بقوله : « ولست واثقا قط من أنه يوجد من بين العلوم علم كالمنطق (٨٠) ». ولكنه مع هذا يخطو فيه الخطوة الأولى . فهو يفحص عن طبيعة اللغة ويقول إنها مشتقة من محاكاة الأصوات (٨١) ؛ ويبحث في التحليل والتركيب ، والتشبهات والمغالطات ، ويقبل الاستقراء ، ولكنه يفضل الاستدلال (٨٢) ؛ ويضع في هذه المحاورات الشعبية نفسها مصطلحات فنية ، كالجوهر ، والطاقة ، والفعل والانفعال ، والتوليد ، وهي المصطلحات التي استخدمتها الفلسفة فيما بعد . وهو يضع أسماء لخمس من المقولات العشر التي أذاعت شهرة أرسطوطاليس . وهو يرفض قول السوفسطائيين إن الحواس خير وسيلة لمعرفة الحقيقة وإن الفرد هو مقياس الأشياء جميعها ؛ ويقول إنه لو صح هذا لكان ما يقوله أى إنسان عن العالم مساويا في قيمته لما يقوله أى نائم ، وأى مخبول ، أو أى قرد (٨٣) .

واسنا نستمد من فوضى الحواس إلا فيضا من التغيرات المرقلبية ؛ ولولم تكن إلا إحساسات ، لما كانت لدينا قط معاومات أو حقائق ؛ ذلك أن المعلومات لا تأتي إلا عن طريق الأفكار ، وعن طريق الصور المعمة ، والأشكال التي تصوغ فوضى الإحساسات وتكون منها التفكير المنظم (٨٤) . ولو كنا لا ندرك إلا الأشياء المفردة لكان التفكير مستحيلا ، ذلك أننا نتعلم التفكير بجمع الأشياء وتصنيفها حسب ما بينها من أوجه الشبه ، ثم نهرب عن الصنف بأجمعه باسم عام له ، فلفظ رجل يمكننا من أن نفكر في جميع الرجال ، ولفظ منضدة يمكننا من التفكير في جميع المناضد ، ولفظ ضوء في جميع الأضواء التي سطعت في البر أو البحر . وليست هذه الآراء (ideai و eida) أشياء تدركها الحواس ، ولكنها حقائق تعرف بالتفكير ، لأنها تبقى ، ولا تتغير ، ولو انعمت

جميع الموجودات الحسية المقابلة لها . فالرجال يولدون ويموتون ، ولكن « الرجل » يبقى . وليس كل مثلث بمفرده إلا مثلثاً ناقصاً ، يبقى عاجلاً أو آجلاً ، ومن أجل هذا فهو غير حقيقى نسبياً ، ولكن « مثلث » - أى الشكل والقانون اللذين ينطبقان على جميع المثلثات - كامل سرمدى (٨٥) . وكل الأشكال الرياضية أفكار سرمدية وكاملة (\*) ، وكل ما تقوله الهندسة عن المثلثات ، والدوائر ، والمربعات والمكعبات ، والكرات ، يبقى صحيحاً ، ومن ثم فهو « حقيقى » ولولم توجد هذه الأشكال فى العالم المادى فى الماضى أو فى المستقبل . والمعانى المجردة هى الأخرى حقيقة بهذا المعنى ؛ فالأعمال الفردية الفاضلة قصيرة الأجل ولكن الفضيلة تبقى حقيقة خالدة فى التفكير ؛ وأداة للتفكير ؛ وهذا أيضاً شأن الجمال ، والكبر ، والمشابهة وما إليها (٨٧) . فالأعمال والأشياء الفردية أشياء وأعمال بالضرورة التى نعرفها بها ، لأنها تشترك فى هذه الأشكال الكاملة أو الأفكار ، وتحقق وجودها بدرجة قليلة أو كثيرة . وعالم العلم والفلسفة لا يكون من أشياء مفردة ، بل يتكون من أفكار (\*\*\*) (٨٨) ؛

---

(٥) ولقد حاول أفلاطون فى سنه الأخيرة أن يبرهن على عكس نظرية فيثاغورس ، أى أن الأفكار جميعها صور رياضية (٨٦) .

(٥٥) وازن بين هذا وبين قول كزل : « إن الأفكار وحدها عند العلماء المحدثين ، كما هى عند أفلاطون ، هى الحقائق (٨٩) » . وانظر أيضاً قول اسبنوزا : « لست أفهم من قولهم تتابع الملل والمولات الحقة ، أن هناك سلسلة من الأشياء الفردية المتغيرة ؛ وليس ذلك فقط لأن حددها يخطئه الحصر ، بل لأن ... وجود الأشياء المهيئة لا صلة بينه وبين جوهر هذه الأشياء ، وليس هو - حقيقة ازلية » (لكنى تكون هندسة المثلثات حقيقية ، ليس من الضرورى أن يوجد أى مثلث خاص ) . « على أنه ليس من الضرورى أن نفهم سلسلة الأشياء الفردية المتغيرة ، لأن جوهرها ... لا يوجد إلا فى الأشياء الثابتة الأزلية ومن القوانين المسجلة فى هذه الأشياء ، والمكونة لثرائها الحقة التى بمقتضاها صنعت وتربّت (٩٠) » . ويلاحظ اقارى أن هرقلطس وبارمنيديس يتفقان مع أفلاطون فى نظريته الخاصة بالأفكار : فهرقلطس إذن على حق ، وتتابع الأشياء - حقيقى فى عالم الحواس ؛ كما أن بارمنيديس على حق والوحدة التى لا تتبدل حقيقة فى عالم الأفكار .

والتاريخ المتميز عن السَّيَر هو قصة الإنسان ، وليس علم الأحياء هو علم كائنات عضوية معينة بل هو علم الحياة نفسها ، وليست العلوم الرياضية هي دراسة الأشياء المجسمة بل هي دراسة العدد ، والعلاقة ، والشكل ، مستقلة عن الأشياء نفسها ، ولكنها تصدق على جميع الأشياء . والفلسفة هي علم الأفكار .

وكل شيء في ميتافيزيقية أفلاطون يدور حول نظرية الأفكار . فالله المحرك الأول الذي لا يتحرك ، أو روح العالم<sup>(٩١)</sup> ، يحرك كل شيء وينظمه . حسب القوانين والأشكال الأزلية ، وهي الأفكار التي لا تتبدل والتي تكون ، على حد قول أصحاب الأفلاطونية الحديثة ، الكلمة أو الحكمة الإلهية أو عقل الله . وأرقى الأفكار هو الخير ، ويرى أفلاطون في بعض الأحيان أن هذا الخير هو الله نفسه<sup>(٩٢)</sup> ، ولكنه في أكثر الأحيان هو أداة الخلق الهادية المرشدة ، والشكل الأعلى . الذي تنجذب إليه كل الأشياء . وإدراك هذا الخير ، ورؤية هذا المثل الأعلى الذي يشكل عملية الخلق ، هو أسْمَى غاية تبتغيها المعرفة<sup>(٩٣)</sup> . وليست الحركة وعملية الخلق عمليتين آليتين . بل هما محتاجان في العالم ، كما نحتاج نحن ، إلى روح أو مبدأ حيوي يكون هو قوتها المنشئة المبدعة<sup>(٩٤)</sup> .

وليس شيء حقيقياً إلا الذي فيه قوة<sup>(٩٥)</sup> ، ومن أجل هذا فإن المادة ليست حقيقة أساسية (to me on) بل هي مجرد مبدأ من القصور الداتي ، وإمكانياته تنتظر أن يعطيها الله أو الروح شكلاً خاصاً وكياناً حسب فكرة من الأفكار . والروح هي القوة المتحركة بنفسها الموجودة في الإنسان ، وهي جزء من الروح المتحركة بنفسها الموجودة في الأشياء جميعها<sup>(٩٦)</sup> . وهي قوة حيوية خالصة ، مجردة من الجسم ، ونخالدة . وقد وجدت قبل الجسم ، وجاءت معها من حاولها في أجسام سابقة بذكريات كثيرة إذ أيقظتها الحياة الجديدة حسبناها خطأ معلومات جديدة . ولنضرب لذلك مثلاً الحقائق

الرياضية. فهي بأجمعها فطرية بهذه الطريقة ، وكل ما يفعله التعليم هو أنه يوقظ ذكريات الأشياء التي عرفتها الروح في حيواتها الكثيرة الماضية (٩٧) .  
وإذا مات الإنسان انتقل روحه أو مبدأ الحياة الذي فيه إلى كائنات عضوية أخرى أرق منه أو أخط حسب ما استحقته في تجسدها السابقة . وربما ذهبت الروح المذنبة إلى المطهر أو الجحيم ، وذهبت الروح الفاضلة إلى جزائر المباركين (٩٨) . فإذا ما تطهرت الروح في خلال الحيات المختلفة من جميع آثامها ، تحررت من التجسد وصعدت إلى الفردوس تتمتع فيه بالسعادة السرمدية (\*) (٩٩) .

#### ٤ - العالم الأخلاقي

لقد كان أفلاطون يعرف أن كثيرين من قرائه سيكونون من المتشككين ، ودلينا على هذا أنه قضى بعض الوقت يحاول وضع قانوني أخلاقي طبيعي يبعث في نفوس الناس الرغبة في الاستقامة والصلاح من غير أن يعتمدوا على السماوات والمطهر والجحيم (١٠١) ؛ وإن المحاورات التي كتبها في حياته الوسطى لتتحول شيئاً فشيئاً من الميتافيزيقا إلى الأخلاق والسياسة « إن أعظم أنواع الحكمة وأجلها هي الحكمة المتصلة بتنظيم الدول والأسر (١٠٢) » .

والمشكلة الرئيسية في علم الأخلاق تدور حول النزاع الظاهر بين ملاذ الفرد وبين الخير الاجتماعي . ويعرض أفلاطون هذه المشكلة عرضاً واضحاً ويورد على لسان كلياس Callias من الحجج التي تبرر الأنانية ما لا يقل عن أقوى الحجج التي أوردتها أي داعية لمخالفة القواعد الخلقية في عصر من العصور (١٠٣) . وهو يعترف بأن كثيراً من اللذائذ لا عيب فيه ولا إثم ،

---

(\*) يصعب علينا أن نحكم عن مقدرا ما في هذه العقيدة ، عقيدة الخلود ، الهندية - الفيثاغورية - الأورفية من تصوير متمد يهدف إلى حماية الناس من الزلزل . ويمرضها أفلاطون عرضاً فكها ، كأنها في نظره لا تعدو أن تكون أسطورة نافعة ، او عوفاً شه يا حل الخلق الطيب .

وأن الإنسان في حاجة إلى الذكاء للتمييز بين اللذات الطيبة واللذات الضارة ، وأن من الواجب أن تربي في الطفل عادة الاعتدال وإدراك « الأواسط الذهبية للأمر » خشية أن يأتي الذكاء متأخراً بعد فوات الوقت (١٠٤) .

وتتكون النفس أو أصل الحياة من ثلاث درجات أو أجزاء - الشهوة ، والإرادة ، والفكر ، ولكل جزء من هذه الأجزاء فضيلته الخاصة - الاعتدال والشجاعة ، والحكمة ، ويجب أن تضيف إليها التقوى والعدالة - وأداء واجب الإنسان نحو والديه وأهله . ويمكن تعريف العدالة بأنها هي تعاون الأجزاء في الكل ، أو العناصر في الأخلاق ، أو الأهلين في الدولة ، بحيث يقوم كل جزء بواجبه اللائق به على الوجه الأكمل (١٠٥) . وليس الخير هو الفعل وحده أو اللذة وحدها ، بل هو امتزاجهما بنسب ومقادير تنتج منها حياة الفعل (١٠٦) . والخير الأسمى كائن في العلم الخالص بالأشكال والقوانين السرمدية ، و « أسمى خير » من الناحية الأخلاقية « ... هو ما في النفس من قدرة أو موهبة ، إذا كان ثمة شيء من هذا النوع تستطيع به أن تعرف الحقيقة ، وأن تفعل كل الأشياء من أجل الحقيقة (١٠٧) ، ومن يجب الحقيقة لا يهجمه أن يجزى الإساءة بالإساءة (١٠٨) » ، بل يفضل أن يتحمل على أن يرتكب هو الظلم ، و « يضرب في الأرض برا وبحرا يبحث عن الناس الذين لا يجد الفساد سيلا إليهم ، والذين لا تُقَوِّمُ مصيبتهم بالمال أيا كان ... والذين يهبون أنفسهم للفلسفة بحق يمتنعون عن الشهوات الجسمية ، وإذا ما عرضت عليهم الفلسفة أن تطهرهم من الشر وتحررهم منه ، أحسوا بأن من واجبه ألا يقاوموا تأثيرها فيهم ، ومن أجل ذلك يميلون نحوها ، ويسبرون خلفها للهدف الذي تقودهم إليه (١٠٩) » .

وكان أفلاطون قد حرق قصائده وفقد عقائده الدينية ولكنه ظل مع ذلك شاعراً وهابداً ، يغمز فكرته عن الخير إحساس قوى بالجمال وتقوى متمزجة

بالزهد والتقشف ؛ توحدت فيه الفلسفة والدين وامتزجت فيه الأخلاق بحاسه الجمال . ولما تقدمت به السن عجز عن أن يرى الجمال منفصلا عن الخير والحقيقة . وكان في دولته المثالية يفرض الرقابة على جميع الفن والشعر اللذين قد ترى الحكومة أن فيهما نزعة مغايرة للأخلاق الفاضلة أو الوطنية ، وهو يمنع فيها جميع الخطب وجميع المسرحيات المضادة للدين ؛ وحتى شعر هومر نفسه - الذى يصور الدين المغاير للأخلاق تصويراً مغريباً - يجب أن يضحى به . وكان يميز في هذه الدولة المثالية أساليب الموسيقى الدورية والفريجية ؛ ولكنه يشترط ألا تضر بها آلات معقدة التركيب أو يعزفها فنانون يحدثون « أصواتا وحشية » في أثناء عرضهم الفنى (١١٠) ، أو يدخلون فيها بدعا متطرفة .

« يجب الابتعاد عن إضافة أى نوع جديد لأنواع الموسيقى ، لأن هذا يعرض الدولة كلها للخطر ؛ وسبب ذلك أن الأنماط الموسيقية إذا اضطربت أثرت حتماً في أهم الأنظمة السياسية . . . ذلك أن النمط الجديد يتأصل في الدولة تدريجاً ، ويتطرق شيئاً فشيئاً إلى أخلاق الناس وعاداتهم ، ومن هذه الأخلاق والعادات يهاجم الشرائع والديساتير ، ويظهر في هذا الهجوم منتهى السفالة ، وينتهى الأمر بقباب كل شىء في الدولة رأساً على عقب (١١١) .

والجمال كالفضيلة إنما يكون في اللياقة ، والتناسب ، والنظام . والعمل الفنى يجب أن يكون مخلوقاً حياً ، ذا رأس ، وجذع ، وأطراف ، توحدتها وتبعث فيها الحياة ، فكرة واحدة (١١٢) . ويظن هذا التزمتم المتحمس أن الجمال الحق هو جمال العقل لا جمال الجسم ، وأن الأشكال الهندسية ذات جمال سرمدى مطلق ، وأن القوانين التى تقوم عليها السموات تفوق النجوم في جمالها (١١٣) . والحب هو طاب الجمال ويتألف من ثلاث مراحل أولها حب الجسم والثانية حب الروح والثالثة حب الحقيقة . وحب الجسم بين الرجل والمرأة مشروع لا إثم فيه لأنه وسيلة للتناسل الذى هو نوع من أنواع الخلود (١١٤) ؛ ولكنه مع ذلك صورة بدائية من

الحب غير جديرة بالفيلسوف . والحب الجسمى بين الرجل والرجل أو بين المرأة والمرأة مناف للطبيعة ويجب قمعه لأنه يعطل التناسل (١١٥) . وقمعه مستطاع بالسمو به إلى المرحلة الثانية أى المرحلة الروحية من مراحل الحب : ففي هذه المرحلة يحب الرجل الكبير السن الشاب لأن وسامته رمز للجبال الطاهر السرمدى ، والشباب يحب الشيخ لأن حكمته تيسر له سبيل الفهم والشرف . ولكن أسمى أنواع الحب هو « حب الاستحواذ على الخير الأبدى » وهو الحب الذى يسعى وراء الجمال المطلق للأفكار أو الأشكال الكاملة السرمدية (١١٦) . وهذا النوع لا العاطفة غير الجسمية بين الرجل والمرأة هو « الحب الأفلاطونى » ، وهو النقطة التى يتحدث عنها أفلاطون الشاعر مع أفلاطون الفيلسوف فى الرغبة القوية فى الفهم ، وتكاد هذه الرغبة أن تكون شغفا صوفياً بما فى القانون وما فى بناء العالم وحياته وغايته من نور النعيم الباهر .

لأن أديمنتنس ، الذى لا يتحول عقله عن الوجود الحق لا يجد لديه وقتاً يطل فيه على شئون الناس ، أو يمثل فيه قلبه حسداً وغلا من النزاع معهم ؛ ذلك أن عينه تتجه على الدوام نحو المبادئ الثابتة التى لا تتبدل ، وهى التى لا يؤذى بعضها بعضاً ، بل يراها كلها تتحرك فى نظام حسب قوانين العقل ؛ فهو يخلو يخلو هذه المبادئ ، وعلى مثالها يشكل حياته قدر المستطاع (١١٧) .

## ٥ - الطوباوى

ولكنه مع هذا يهتم بشئون الناس ، وتمثل أمام ناظره رؤيا اجتماعية أيضاً ، ويحلم بوجود مجتمع خال من الفساد والفقر والظلم والحروب . وقد روعه ما كان يسود أئينة من انقسامات حزبية مريرة « وشقاق ، وعداء ، وحقد ، وريبة ، لا تكاد تحب نارها حتى تعود إلى الاشتعال » (١١٨) . وكان يحتمر بالحركة المال كما يحتمرها جميع النبلاء أبناء الأسر الشريفة ذات المجد التليد،

ويقول عن رجالها إنهم « رجال الأعمال . . . الذين لا تطاوعهم نفوسهم إلى رؤية من قضوا عليهم يجشعهم ، ويدفعون سمومهم — أى ما لهم — في جسم كل من لا يحدّهم ، ثم يستردون ما أخذوه منهم أضعافاً مضاعفة : وتلك هى الطريقة التى يملأون بها الدولة بالكسالى والمعلمين » (١١٩) « ثم تنشأ الديمقراطية ، بعد أن يتغلب الفقراء على معارضهم ، فيقتلون بعضهم ، وينفون من البلاد البعض الآخر ، ثم يمنحون الباقين أقساطاً متساوية من الحرية والسلطة » (١٢٠) . ويتضح آخر الأمر أن الديمقراطيين لا يقلون فساداً عن الحكام الأثرياء : فهم يستخدمون القوة التى تؤول إليهم لكثرة عددهم ليوزعوا الأموال العامة على الفقراء ، ومناصب الدولة عليهم أنفسهم ؛ وهم يتملقون العامة ويدهنونهم حتى تنقلب الحرية فوضى ، وتنحط المعايير بعد أن تؤول السلطة العليا إلى أراذل الناس ، وتغلظ الطبع بسبب انتشار الوقاحة والسباب ؛ وكما أن السعى الجنونى وراء المال يقضى على الحكم الأبجركى ، كذلك يقضى على الديمقراطية التطرف فى الحرية .

سقراط : فى مثل هذه الدولة تسود الفوضى ، وتتخذ سبيلها إلى بيوت الأفراد ، وينتهى الأمر بانتقال علواها إلى الحيوانات . . . فيعود الأب النزول إلى مستوى أبنائه . . . ويعود الابن أن يضع نفسه فى مستوى أبيه ، فلا يخشى أبويه ، ولا يستحى منهما . . . ويخاف الأستاذ طلابه ويتملقهم ، ويحتقر الطلاب أساتذتهم ومعلميهم . . . ويصبح الكبار والصغار سواسية ، فيضع الشاب نفسه فى مستوى الشيخ ، ولا يستنكف أن يعارضه بالقول والفعل ولا يتحرج الشيوخ من تقليد الشبان . ومن واجبي ألا أنسى حرية الجنسين الذكور والإناث ومساواة كليهما بالآخر فى علاقتهما ببعضهما ببعض . . . والحق أن الخيل والحمير ، لن تعلم وقتئذ سبيلا للسير مع الناس جنباً إلى جنب ، والاستمتاع بكل ما لأحرار الناس من حقوق وكرامات . . . وقصارى القول أن الأشياء جميعها توشك أن تنفجر لكثرة ما أنتجت بالحرية . . .

أدمنتس : ولكن ما هي الخطوة التالية ؟ ...

سقراط : إن ازدياد أي شيء فوق حده كثيراً ما يؤدي إلى انقلاب في الاتجاه المضاد له . . . ولهذا يبدو أن الإفراط في الحرية ، سواء كان ذلك من ناحية الأفراد أو من ناحية الدول ، لن يؤدي إلا إلى الاستعباد ... ونرى أن أشد أنواع الحكومات استبداداً تنشأ من أشد أنواع الحرية تطرفاً . وإذا ما صارت الحرية تحللاً من كل القيود ، فقد اقتربت الدكتاتورية . ذلك أن الأغنياء يخشون وقتئذ أن تجردهم الديمقراطية من مالم فيأتمرون بها ليقضوا عليها (١٢٢) « وقد يفتصب السلطة أحد الأفراد المغامرين ، ويعد الفقراء بكل ما يرغبون فيه ، ويحيط نفسه بجيش خاص به ، ويقتل أولاً أعداءه ثم يتبعهم بأصدقائه « حتى يطهر الدولة « من هؤلاء وأولئك ، ويقيم حكومة دكتاتورية (١٢٣) . وفي هذا الصراع العنيف بين الآراء المتطرفة يكون الفيلسوف الذي ينادى بالاعتدال والتفاهم أشبه « برجل وقع بين الوحوش » ؛ فإذا كان حكماً « احتمى بجدار حتى تمر العاصفة والريح الهوجاء » (١٢٤) .

ومن العلماء من يلجئون في هذه الأزمات إلى الماضي ، ويشغلون بكتابة التاريخ ، أما أفلاطون فيلجأ إلى المستقبل ؛ ويضع نظام المدينة الفاضلة ، ويرى أن أول ما يجب عمله هو البحث عن ملك صالح يسمح لنا بأن نجرى التجارب على شعبه ، وواجبنا الثاني هو أن نبعد من هذه المدينة جميع الكبار فلا نستبقى منهم إلا من لا غنى عنهم لحفظ النظام وتعليم الشبان ، وذلك لأن أساليب الكبار تفسد الشبان وتطبعهم بطابع الماضي . ثم نعد الشبان رجالاً كانوا أو نساءً منهنجا تعليمياً يمد إلى عشرين عاماً ، ويشمل تعليم الأساطير « وهو لا يقصد بها أساطير الدين القديم الفاسدة ، بل أساطير جديدة تعود النفس طاعة الآباء والدولة (\*) . فإذا قضوا في التعليم هذه المدة وضعت لهم اختبارات جسدية وعقلية وأخلاقية . فأما الذين يخفقون

(\*) أي أن أفلاطون يحكم بأن القانون الأخلاق الطبيعي يمكن بمفرده .

في هذه الاختبارات فيصبحون هم رجال الاقتصاد في الدولة — رجال الأعمال ، والصناع ، والزراع ؛ ويسمح لهؤلاء بأن تكون لهم أملاك خاصة ، وأن يكونوا على درجات مختلفة في الثراء ( داخل حدود معينة ) حسب كفاياتهم ، على أنه لا يسمح بوجود العبيد . أما من يجتازون هذا الاختبار الأول فيتلقون منهاجاً آخر من التعليم والتدريب يمتد إلى عشرة أعوام أخرى .

ثم يجتازون من جديد بعد الأعوام الثلاثين ؛ فأما الساقطون فيصبحون جنوداً ، لا يسمح لهم بأملاك خاصة ولا يشتغلون بالأعمال التجارية والمالية ، بل يعيشون في شيوعية عسكرية . وأما الذين يجتازون الاختبار الثاني فيبدأون في ذلك الوقت ( لا قبله ) دراسة « الفلسفة الإلهية » (١٢٥) مدة خمس سنين . وتشمل الدراسة جميع فروع هذه الفلسفة من رياضيات إلى منطق إلى سياسة وقانون . فإذا أتموا في هذه الدراسة النظرية خمسة وثلاثين عاماً ، ألقوا في الحياة العملية ليكسبوا قوتهم ويشقوا طريقهم . وبعد خمسين عاماً يصبح الباقون منهم على قيد الحياة الطبقة المهيمنة على المدينة أو حكامها من غير حاجة إلى انتخاب .

ويمنح هؤلاء السلطة كلها ، ولكنهم لا تكون لهم أملاك . ولن تكون للمدينة قوانين ، بل تعرض كل القضايا والمنازعات على الملوك — الفلاسفة ليفصلوا فيها بحكمتهم التي لم تفسدها السوابق . ولكن يكون لهؤلاء الملوك — الفلاسفة ملك ولا مال ، ولا أسر ، ولا زوجات يختصون بهم على الدوام ، وذلك لكيلا يسيئون استخدام سلطتهم . ويتولى الشعب التصرف في أموال المدينة كما يتولى الجند السلطة العسكرية . وليست الشيوعية عند أفلاطون نوعاً من الديمقراطية ، بل هي أرستقراطية ، يعجز عن بلوغها عامة الشعب ، ولا يحتملها إلا الجنود والفلاسفة .

أما الزواج فيجب أن ينظمه الحراس لجميع الطبقات تنظيماً دقيقاً يهدف إلى غرض مقدس هو تحسين النسل ؛ « فيجب أن يجتمع أفضل الجنسين بعضهم ببعض أكثر ما يستطيعون ، وأن يجتمع المنحطون من الرجال بالمنحطات من النساء ،

ثم يربي أبناء الأولين ولا يربي أبناء الآخرين ، لأن هذه هي السبيل الوحيدة للاحتفاظ بالشعب في حالة صلحة ، (١٣٦) وعلى الدولة أن تتولى تربية الأطفال جميعهم وتقدم لهم فرصاً للتعليم متكافئة . ويجب ألا تكون الطبقات وراثية ، وأن يكون للبنات من الفرص مثل ما للأولاد ، وألا تمنع النساء من تولي مناصب الدولة لأنهن نساء . ويعتقد أفلاطون أنه بهذا المزيج من الفردية والشيوعية ، وبالعامل على تحسين النساء ، ومساواة المرأة بالرجل في الحقوق ، يستطيع أن يوجد مجتمعاً يسر الفيلسوف أن يعيش فيه . ويختم بحته بالعبارة الآتية : « وإلى أن يكون الفلاسفة ملوكاً ، أو أن يتشبع ملوك هذا العالم وأمراؤه بروح الفلسفة وقوتها . . . لن تنجو المدن ولن ينجو الجنس البشري من الشر » (١٣٧) .

## ٦ - المشتري

وظن أنه وجد في دنيوسوس الثاني الأمير المطلوب . وكان يشعر كما يشعر فلتير أن الملكية المطلقة تمتاز من الديمقراطية بأن المصلح في الحالة الأولى لا يحتاج إلى إقناع أكثر من رجل واحد (١٣٨) . وفي ذلك يقول إنك إذا أردت أن تنشئ دولة صلحة فإليك إلا أن تضع على رأسها حاكماً بأمره ، شاباً معتدلاً ، سريع التعلم ، قوى الذاكرة شجاعاً ، كريم الطبع . . . حسن الحظ ؛ ويكون حسن حفظه في أنه معاصر لمشتري عظيم ، وأن الظروف الموقفة تجمع أحدهما إلى الآخر (١٣٩) لكن اجتماعه بدنيوسوس كان كما سبق القول من أسوأ الظروف .

وكان أفلاطون في آخر سني حياته لا يزال يتوق إلى أن يكون مشرعاً ، ولذلك عرض على الناس دولة تلي الدولتين السابقتين في الحسن ، وهو يتحدث عن هذه الدولة الثالثة في كتاب القوانين ، وهذا أقدم المراجع الأوربية المعروفة في التشريع ، وهو إلى هذا دراسة نافعة في عهد الشيخوخة

اليوناني الذي أعقب عهد الشباب الإبداعي . وفيه يقول أفلاطون إن الدولة الجديدة ينبغي أن تكون في داخل الأرض ، بعيدة عن البحر حتى لا تفسد الآراء الأجنبية لإيمانها ، والتجارة الأجنبية أمنها ، والترف الأجنبي بساطها وانطواءها على نفسها(١٣٠) . ويجب أن يقتصر عدد مواطنيها الأحرار على العدد السهل الانقسام وهو ٥٠٤٠ يضاف إليهم أفراد أسرهم . ويختار المواطنون من بينهم ٣٦٠ حارساً يقسمون إلى جماعات تتألف كل واحدة منها من ثلاثين شخصاً يتولون تصريف أعمال الدولة شهراً واحداً ، ويختار الحراس الثلاثة والستون مجلساً ليلياً مؤلفاً من ستة وعشرين عضواً يجتمع في الليل ويشرع لكل شئون المدينة الحيوية(١٣١) . ويجب على هؤلاء الأعضاء أن يقسموا الأرض بين أسر المواطنين أقساماً متساوية على ألا يسمح لهؤلاء الملاك بتقسيمها بعدئذ ولا بالنزول عنها لغيرهم . وعلى الحراس « أن يتخلوا ما يجب اتخاذه من الاحتياطات حتى لا يضر المطر بالأرض بدل أن ينفعها . . وأن يمنعوا المطر عنها بالجسور والخنادق ، ويجعلوا قنوات « الري « توصل الكثير من الماء لجميع الأراضي حتى الأراضي الجافة »(١٣٢) . ويجب ألا تزيد التجارة على الحد الأدنى حتى لا ينشأ من هذا عدم المساواة الاقتصادية . ويجب ألا يحتفظ الناس بشيء من الذهب أو الفضة ، وألا يتعاملوا بالربا(١٣٣) ، وألا يشجع أي إنسان على أن يعيش باستثمار أمواله ، بل يشجع على أن يعيش بالاستغلال يزرع الأرض بجد ونشاط . ويجب على كل من يحصل من ريع الأرض على أربعة أمثال قيمة أن يرد الباقي إلى الدولة . وقد قيد حق التوريث والوصية بأشد القيود(١٣٤) وجعل للنساء فرصاً تعليمية وسياسية متكافئة مع الرجال(١٣٥) ، وفرض على الرجال أن يتزوجوا بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، وإلا ألزموا بدفع غرامات سنوية باهظة(١٣٦) ، وعليهم ألا يلدوا أطفالاً إلا في خلال عشر سنين . ومن الواجب تنظيم الشراب وغيره من وسائل اللهو للمحافظة على أخلاق الشعب(١٣٧) .

وللوصول إلى هذا كله في هدوء وسلام يجب أن تشرف الدولة لإشرافا تاما على شئون التعليم ، والنشر ، وغيرهما من وسائل تكوين الرأى العام ، وأخلاق الأفراد ، ويجب أن يكون أكبر موظف فى الدولة هو وزير المعارف . ويجب أن تحمل السلطة عمل الحرية فى شئون التعليم ، وذلك لأن ذكاء الأطفال أقل من أن يميز لنا أن نتركهم يخطون لنفسيهم حياتهم . ويجب ألا تفرض الرقابة على الآداب ، والعلوم والفنون ، فلا يجوز أن يعبر عن آراء يرى أعضاء المجلس أنها ضارة بالآداب العامة أو الخلق القويم . وإذا كانت طاعة الوالدين والقوانين لا بد أن تستند إلى قوة أعلى من قوة البشر وتأييدها فإن الدولة هى التى تقرر أى الآلهة تعبد وكيف تعبد ومتى تعبد . وكل من يتردد فى الخضوع لهذا الدين الرسمى يسجن ، فإن أصر على عدم الخضوع له وجب أن يقتل (١٣٨) .

ولست الحياة الطويلة نعمة لصاحبها على الدوام . ولقد كان من الخير لأفلاطون أن يموت قبل أن يوجه هذه التهمة لسقراط ، وأن يمهد هذا التمهيد لجميع محاكم التفتيش المستقبلية . ولعل دفاعه عن نفسه هو أنه يجب العدالة أكثر من حبه للحقيقة ، وأن هدفه هو أن يمحو الفقر والحرب . وأنه لا يستطيع أن يمحوا إلا بسيطرة الدولة على الأفراد سيطرة تامة ، وأن هذه السيطرة لا تكون إلا بواحدة من اثنتين القوة أو الدين . وكان يظن أن ما أصاب الأثينيين من انحلال أيونى فى الأخلاق والسياسة لا علاج له إلا بالقوانين الاسبارطية المشتقة من النظام الدورى . والزعة السارية فى تفكير أفلاطون كله هى خوفه من أن يساء استخدام الحرية ، وأن يفهم الناس الفلسفة على أنها الرقيب على شئون الناس والمنظمة للفنون . ويعرض أفلاطون فى كتاب القوانين تسليم أثينة المحتضرة التى استوفت حياتها لاسبارطية التى قضت نجحها من أيام ليقورغ ، وإذا لم يكن فى وسع أشهر فلاسفة أثينة أن يقول أكثر مما قال دفاعا عن الحرية . فعنى هذا أن بلاد اليونان كانت على أتم استعداد لأن يتولى أمورها ملك . وإذا ما ألقينا نظرة

شاملة على جميع هذه الآراء اعترتنا إلهة. إذ نرى أن أفلاطون قد جاء في هذا الوقت القديم بكل ما جاءت به في العصور الوسطى للفلسفة والدين والأنظمة المسيحية ، وبالشئ الكثير مما جاءت به الفاشية في العصر الحديث . لقد صارت نظرية الأفكار هي « واقعية » المدرسين - واقعية « العموميات » الموضوعية ، ولم يكن أفلاطون مسيحياً قبل وجود المسيحية - على حد قول نتشه - فحسب ، بل كان فوق ذلك متزماً مسيحياً قبل وجود عصر التزمّت المسيحي . فهو يرتاب في الطبيعة البشرية ويراهما شراً ، ويعتقد أنها هي الخطيئة الأولى التي لوثت النفس . وهو يعمد إلى تلك الوحدة القائمة بين الجسم والروح والتي كانت هي الفكرة الرئيسية في القرنين السادس والخامس ، فيقسمها إلى جسم خيثل وروح قدسية (١٣٩) . وهو يستمد من فيثاغورس والأورفية اعتقاد الشرق في تناسخ الأرواح ، والكرما (\*) ، والخطيئة والتطهير ، و « الانطلاق » ؛ ويضرب في كتبه الأخيرة على نعمة أخروية شبيهة بنعمة أوغسطين أى نعمة الرجل الذى تاب وأتاب وعاد إلى الدين الصحيح ، ولولا هذا النثر الذى بلغ غاية الكمال لشك الإنسان في أن أفلاطون من اليونان .

وقد بقى أفلاطون أحب المفكرين اليونان إلى الناس لأنه يتصف بعيوبهم الجلداة المحبوبة . وكان مثل داتى مرهف الحس إلى حد يستطيع معه أنه يرى الجمال الكامل السرمدى وراء الأشكال الدنيوية غير الكاملة . وكان زاهداً لأنه كان مضطراً في كل لحظة إلى أن يكبح جماح مزاجه القوى العنيف (١٤٠) . وكان شاعراً يسيطر عليه الخيال ويسير وراء كل فكرة شاذة غريبة ، وتستحوذ عليه مآسى الأفكار ومباهجها ، يهبجه التحمس الدهنى

---

(\*) عقيدة بودية تقول إن أعمال الإنسان والكائنات الحية بوجه عام يحددها تتابع اللل والمطولات السابقة بنظام محتم لا يتبدل . ( المترجم )

المنبعث من الحياة العقلية الحرة التي كانت تستمتع بها أئينة . ولكن كان من سوء حظه أنه رجل منطوق وشاعر معاً ، وأنه كان أقوى مجادل في العصر القديم ، فقد كان أدق في جدله من زينون الإليائي ومن أرسطو ، وأنه كان يشغف بالفلسفة أكثر من شغفه بأية امرأة أو أى رجل ، وأنه انتهى في آخر الأمر بمثل ما انتهى إليه الباحث الأكبر في رواية دستيوفسكى ، وهو قمع كل تفكير حر ، واعتقاده بأن الفلسفة يجب أن يقضى عليها لكي يعيش الإنسان . ولو أن مدينته الفاضلة تحققت فعلاً لكان هو أول ضحاياها .

## الفصل الرابع

### أرسطوطاليس

#### ١ - أعوام التجوال

لما مات أفلاطون شيد أرسطوطاليس مذبحاً له وكرمه تكريماً يكاد يبلغ حد التأليه ، ذلك لأنه كان يعجب بأفلاطون وإن لم يكن يميل إليه . وكان أرسطوطاليس قد قدم إلى أثينة من مسقط رأسه في اسطاغيرا وهي مستعمرة يونانية صغيرة في تراقية . وكان أبوه الطبيب الخاص لأمينتاس الثاني Amyntas II والد فليب ، وكان قد علم الشاب ( إذا لم يكن جالينوس مخطئاً في قوله ) شيئاً من التشريع قبل أن يبعث به إلى أفلاطون<sup>(١٤١)</sup> . واجتمعت باجتماع الفيلسوفين نزعتان متعارضتان في تاريخ الفكر - النزعة الصوفية والنزعة الطبيعية - وأخذتا تحتربان . ولو أن أرسطوطاليس لم يستمع إلى أفلاطون تلك المدة الطويلة ( التي يقدرها بعضهم بعشرين عاماً ) لجاز أن يكون له عقل علمي محض ؛ أما وقد استمع له تلك المدة فإن ابن الطبيب أخذ ينازع فيه تلميذ المعلم المتزمت ، ولم تتغلب إحدى النزعتين على الأخرى ، لهذا لم يقرر أرسطو طول حياته أي النزعتين يطبع . لقد كدس حوله ملاحظات علمية تكفي لإخراج موسوعة كاملة ، ثم حاول أن يحشرها في القالب الأفلاطوني الذي صنع عقله المدرسي على غراره . ولقد نقض حجج أفلاطون في كل مرحلة من مراحل تفكيره لأنه كان يستعير منه في كل صفحة من صفحات كتبه .

وكان طالبا مجداً ، وشرعان ما لاحظ فيه معلمه هذا الحد . ولما قرأ أفلاطون رسالته عن الروح في المجتمع العلمي كان أرسطوطاليس ( على حد قول دييجين

لبرتس ) « الشخص الوحيد الذى يستمع إليها من أولها إلى آخرها ، أما غيره فقد انفضوا من حوله » . ولما مات أفلاطون ذهب أرسطوطاليس إلى بلاد هرمياس Hermeias ، وكان قد درس معه في الجمع العلمى وارتفع من عبد رقيق إلى أن صار حاكماً . بأمره في أترنيوس Atarneus وأسوس Assus من بلاد آسية الصغرى . وتزوج أرسطوطاليس ببثياس Pythias ابنة هرمياس ( ٣٤٤ ) ؛ وأوشك أن يستقر في أسوس ، لكن الفرس اغتالوا هرمياس ، لأنهم ظنوه يدبر الخطة لمعاونة فليپ في غزوه المرتقب لبلاد آسية (١٤٣) . وفر أرسطوطاليس مع بثياس إلى لسبوس القرية وقضى فيها بعض الوقت يدرس تاريخ الجزيرة الطبيعى (١٤٤) . ثم ماتت بثياس بعد أن رزق منها بنتاً ، ثم تزوج أرسطوطاليس بعدئذ الغانية هريليس Herpyllis أوعاشها (١٤٥) ، ولكنه ظل إلى آخر أيام حياته يعز ذكرى بثياس ، وأوصى وهو على فراش الموت أن تدفن عظامه بجوار عظامها ، ذلك أنه لم يكن بالرجل المنكب على الدرس والكتب الذى قد يتصوره الإنسان بالنظر إلى مؤلفاته . وفي عام ٣٤٣ دعاه فليپ ليتولى تعليم الإسكندر ، وكان وقتئذ غلاماً طائشاً في الثالثة عشرة من عمره . وأكبر الظن أن فليپ قد عرف الفيلسوف أيام شبابه في بلاط أمينتاس . وجاء أرسطوطاليس إلى بلا ؛ وظل يقوم بهذا الواجب الثقيل أربع سنين ؛ وفي عام ٣٤٠ كلفه فليپ بالإشراف على إعادة بناء اسطرخوس وتعميرها ، وكانت قد ضربت في أثناء الحرب مع أولنثوس Olynthus ؛ وطلب إليه فوق ذلك أن يضع لها شرائعها ؛ وقد قام بهذه الأعمال جميعها قياماً أرضى أهل المدينة ، فأخذت من ذلك الحين تسمي ذكرى هذا التعمير بإقامة عيد له في كل عام (١٤٦) .

وفي عام ٣٣٤ عاد إلى أثينة ، وافتتح فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة - وأكبر الظن أن الإسكندر قد أمده بما يلزمه من المال ، واختار مكانها في أجل دار للتدريب الرياضى في أثينة ، وهى طائفة من المباني خاصة بأپولو لوقيوس

Apollis Lyceus ( إله الرعاة ) تحيط بها حدائق غناء ، وطرق مسقوفة ، وكان في صدر النهار يلتقى على الطلبة المنتظمين فيها دروساً في موضوعات راقية ، وفي عجزه يلتقى محاضرات على جماعات من الشعب أقل انتظاماً وأقل رقياً ممن يستمعون إليه في الصباح : وأكبر الظن أن هذه المحاضرات الثانية كانت في البلاغة ، والشعر ، والأخلاق والسياسة ، وقد جمع في هذا البناء مكتبة كبيرة ، وأنشأ فيه حديقة للحيوان ومتحفاً للتاريخ الطبيعي ، وسميت المدرسة فيما بعد ، باللوقيون Lyceum ، كما سمي الطلاب بالمشائين وسميت فلسفتهم بالمشائية نسبة إلى الماشى المسقوفة (Pereptaoi) التي كان أرسطوطاليس يحب أن يسير فيها مع طلابه وهو يحاضرهم (١٤٧) : وقامت منافسة حادة بين اللوقيون التي كان معظم طلابها من الطبقة الوسطى ، وبين المجمع العلمي الذي كان يستمد معظم أعضائه من طبقة الأشراف ، ومدرسة إسقراط التي كان يؤتمرها في الغالب يونان المستعمرات . ثم خفت حدة هذه المنافسة فيما بعد حين وجه إسقراط اهتمامه إلى الفلسفة ، وحين أخذ المجمع العلمي يعنى بالعلوم الرياضية ، وما وراء الطبيعة ، والسياسة ، وأخذت اللوقيون تعنى بالتاريخ الطبيعي . وكان أرسطو يطلب إلى تلاميذه أن يجمعوا المعلومات في الميادين العلمية المختلفة وينسقوها : كمعادن البرابرة ، وديساتير المدن اليونانية ، وتواريخ الفاترين في الألعاب البيثية والديونيشيا الأثينية ، وأعضاء الحيوانات ، وعاداتها ، وأوصاف النباتات وتوزيعها ؛ وتاريخ العلوم والفلسفة ، وأضحت هذه البحوث ذخيرة طيبة من المعلومات يستمد منها رسائله المختلفة التي يخطئها الحضر ، وكان أحياناً يولى هذه المعلومات من الثقة أكثر مما تستحق :

وكتب لأوصاف المتعلمين نحو سبع وعشرين محاوره يرى شيشرون وكونتليان أنها تضارع محاورات أفلاطون ؛ وهذه المحاورات هي التي قامت عليها شهرته في الزمن القديم (١٤٨) ؛ وقد ضاعت فيها ضاع على أثر استيلاء البرابرة على رومة .

أما ما بقي لنا من مؤلفاته فهو مجموعة من الكتب الفنية ، المجردة إلى أبعد حد في التجريد ، والحالية من المتعة إلى درجة تعزى على التقليد ، وكلما كان العلماء الأقدمون يشيرون إليها في مؤلفاتهم ، ولعله قد كتبها في السنين العشرين الأخيرة من حياته بالرجوع إلى مذكرات له وضعها بنفسه ليعتمد عليها في محاضراته ، أو من مذكرات دونها تلاميذه عن هذه المحاضرات ؛ ولم تكن هذه الذخيرة العلمية الفنية معروفة خارج اللوقيون حتى نشرها أندرونكوس Andronicus من أهل رودس في القرن الأول قبل الميلاد (١٤٩) .

وقد بقيت لنا من هذه الكتب أربعون كتابا ، ولكن ديجين ليرتس يضيف إليها ٣٦٠ كتابا أخرى أكبر الظن أنها رسائل قصيرة كل منها في موضوع واحد . وهذه للبقايا العلمية القليلة هي التي يجب علينا أن نبحث فيها عن الأفكار التي كانت وقتها ما أفكاراً حية ، والتي أكسبت أرسطوطاليس في العصور التي تلت عصره لقب « الفيلسوف » . وإذا ما أخذنا ندرسه فعلياً لا نتوقع أن نرى في كتاباته من البهجة ما في أفلاطون ، ومن الفكاهة ما في ديجين ؛ بل كل الذي نجده هو طائفة كبيرة من المعلومات القيمة ، ومن الحكمة المتحفظة الخليقة بصديق الملوك الذي يعيش من ردهم (\*) .

(\*) ويمكن تقسيم ما بقي من رسائله ستة أقسام :

١ - رسائل في المنطق : مقولات ، شروح ، تحليلات سابقة ، تحليلات لاحقة ، موضوعات ، استدالات سوفسطائية

٢ - علوم :

( أ ) علوم طبيعية : طبيعة ، ميكانيكا ، هيت ، ظواهر جوية .

( ب ) أحياء : تاريخ الحيوان ، أجزاء الحيوان ، حركات الحيوان ، إفتقال

الحيوان ، تناسل الحيوان .

( ج ) علم النفس : في الروح ، مقالات قصيرة في طبيعة للعالم .

٣ - ما وراء الطبيعة .

٤ - علم الجمال : البلاغة ، والشعر .

٥ - علم الأخلاق : الأخلاق النيقوماخية الأخلاق الأردية .

٦ - السياسة : علم السياسة ، دستور أثينة .

## ٢ العالم الطبيعي

إن الاعتقاد السائد هو أن أرسطو فيلسوف قبل كل شيء ، ولعل هذا من الأخطاء الشائعة ؛ بيد أننا سنعده في هذا الكتاب عالماً طبيعياً أولاً ، حتى إذا لم يكن لهذا سند إلا أنه رأى في الرجل جديد :

وأول ما نقوله عنه أن عقله المطلعة بهم بعملية الاستدلال وأصولها الفنية ، ويحلل هذه العملية والأصول تحليلاً بلغ من الدقة حداً أصبح معه الأورغانون (Organon) أو الآلة (الفكرية) - وهو الاسم الذي أطلق بعد وفاته على رسالاته في المنطق - المرجع الذي ظل المناطق يعتمدون عليه مدى أئني عام . وهو يتوق إلى أن يكون واضح التفكير ، وإن كان لا يصل إلى هذا الغرض فيما لدينا من كتبه إلا نادراً ؛ فهو يقضى نصف وقته في تعريف مصطلحاته ، فإذا فرغ من هذا شعر بأنه قد حل المسألة التي يبحث فيها ؛ وهو يعرف التعريف نفسه تعريفاً دقيقاً بأنه تحديد الشيء أو الفكرة بذكر الجنس أو الصنف الذي ينتمي إليه ذلك الشيء ، أو تنتمي إليه تلك الفكرة (كقوله « الإنسان حيوان ») والفروق الخاصة التي تميزه أو تميزها عن جميع أفراد الصنف (« الإنسان حيوان عاقل ») . وبما تمتاز به طريقته المنظمة أنه قسم المظاهر الرئيسية التي يمكن دراسة أي شيء بمقتضاها عشرة أقسام : المادة ، والكم ، والكيف ، والعلاقة ، والمكان ، والزمان ، والموضع ، والمثلك ، والفاعلية ، والانفعالية - وهو تصنيف وجد فيه بعض الكتاب ما يعينهم على تنشيط ذهنهم الكليل .

وهو يرى أن الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة ، وأن القوانين العامة ليست إلا أفكاراً مجمعة ، وأنها ليست فطرية بل تكونت من مشاهدات للأشياء المتماثلة ، فهي مدركات وليست أشياء (١٥٠) . وهو يقرر قرار

لوائق مبدأ التناقض ، بوصفه الشيء البدهي في المنطق كله ، وهو أن « الصفة الواحدة لا يمكن أن تكون من صفات الشيء الواحد ومن غير صفاته في العلاقة الواحدة (١٥١) » . ويكشف عن المغالطات التي يقع فيها السوفسطائيون أو يفرون الناس بالوقوع فيها ، وينتقد المتقدمين لأنهم صوروا الكون أو وضعوا نظرياتهم عنه من خيالهم بدل أن يمضوا الوقت الطويل في الرصد والتجارب بصبر وأناة (١٥٢) . ومثله الأعلى الاستدلال المنطقي وهو القياس - المكون من ثلاث قضايا ثالثها نتيجة محتومة للقضيتين الأوليين ؛ ولكنه يقر بأنه إذا أريد تجنب الوقوع في خطأ المصادرة على المطلوب الأول (\*) وجب أن يسبق القياس استقراء واسع يجعل قضيته الكبرى مرجحة ؛ وهو وإن كان في رسائله الفلسفية يضل في ببدء الاستدلال يمجّد الاستقراء ويجمع في كتبه العلمية ذخيرة طيبة من الملاحظات المحدودة الدقيقة ، ويسجل في بعض الأحيان تجاربه هو أو تجارب غيره من العلماء (\*\*). وقصارى القول أنه رغم أغلاله واضح أساس الطريقة العلمية وأول من نظم التعاون في البحث العلمي .

فهو يبدأ بحثه العلمي من حيث انتهى ديموقريطس ، ولا يخشى أن يبلج كل ميدان فيه . وهو أضعف ما يكون في الرياضيات والطبيعة ، ويقتصر فيما على دراسة المبادئ الأساسية . فهو في كتابه « الطبيعة » لا يسعى وراء اكتشافات جديدة بل يهتم بوضع التعاريف الواضحة للمصطلحات المستعملة في هذا العلم كالمادة ، والحركة ، والمكان ، والزمان ، والاستمرار ، واللاتهائي ، والتغير ، والنهية . فالحركة والمكان عنده مستمران ، وهما لا تتكونان ، كما يفترض زينون ،

---

( \* ) هو انتراض صحة ما يراد إثباته . ( المترجم )

( \*\* ) مثال ذلك أنه يشير في كتابه « تنازل الحيوان ( ٤ : ٦ : ١ ) » إلى نمو العينين من جديد إذا أزيلتا في صفار طير ؛ وهو يرفض انظرية أمثالته : إن الحصى اليمنى تنج الذكور واليسرى تنج الإناث من الأبناء ، ويستدل على ذلك بأن رجلا أزيلت خصيته اليمنى ومع ذلك ظل ينجب بنين وبنات .

من لحظات أو أجزاء صغيرة قابلة للانقسام ، والشيء « اللانهائي » موجود بالقوة لا بالفعل (١٥٣) . وهو يحس بالمشاكل التي أثارته تفكير نيوتن وإن لم يعمل شيئاً لحلها ؛ وهذه المشاكل هي القصور الذاتي ، والجاذبية والحركة ، والسرعة . ولديه فكرة عن توازن القوى ، ويقول في قانون الروافع : « كلما كان الثقل المحرك بعيداً عن نقطة الارتكاز كان أقدر على تحريك ( الجسم ) (١٥٤) » .

ويقول إن الأجرام السماوية كلها كرات - ويؤكد ذلك بالنسبة للأرض بنوع خاص ، لأنه لا يستطيع تفسير شكل القمر إذا خسف بسبب اعتراض الأرض بينه وبين الشمس إلا إذا كانت الأرض كرية (١٥٥) . وهو يدرك الأزمنة الجيولوجية إدراكاً يستثير الإعجاب فيقول مثلاً إن البحر يستحيل إلى أرض والأرض تستحيل إلى بحر على توالي الأيام ، ولكننا لانحس بهذا التحول (١٥٦) ، وقد ظهرت أمم وحضارات لا حصر لها ثم اخضعت ، إما بسبب الكوارث السريعة ، وإما بسبب عدوان الأيام البطيء . « وأكبر الظن أن كل فن قد نما وازدهر وارتفع إلى أعلى الدرجات عدة مرار ثم اختفى . وهذا أيضاً شأن الفلسفة (١٥٧) » . والحرارة أهم عامل في التغيرات الجيولوجية والجيوية . وهو يجازف بتفسير أصل السحب والضباب ، والندى والصقيع ، والمطر ، والثلج والبرد ، والرياح ، والرعد ، والبرق ، وقوس قزح ، والشهب . ونظرياته في الغالب شاذة غريبة ، ولكن رسالته الصغيرة في الظواهر الجوية عظيمة الخطر من الناحية التاريخية ، لأنها لا تستند إلى التوى الخارقة للطبيعة ، بل يحاول فيها أن يرجع ما في الجو من تقلبات تبدو له غير منطبقة على القوانين الطبيعية إلى أسباب طبيعية تعمل متعاقبة وفقاً لنظام محدد ، ولم يكن من المستطاع أن ترق العلوم الطبيعية فوق الحد الذي وصلت إليه على يديه إلا بعد أن مدتها الاختراعات بأجهزة وآلات أوسع مدى وأدق في الرصد والقياس .

أما علم الأحياء فهو ميدان أرسطو الحقيقي ، فهو فيه واسع الملاحظة عظيم الاطلاع ؛ وفيه أيضاً يرتكب أكثر الأغلط ؛ وأعظم فضل له على هذا العلم الحيوى أنه نسق كل ما كشف فيه من قبل ودعم أركانه ، فقد استعان بتلاميذه على جمع المعلومات القيمة عن الحيوان والنبات فى بلاد بحر إيجة كما جمع فى مكان واحد أولى المجموعات العلمية من الحيوان والنبات . وإذا جاز لنا أن نأخذ بقول بلنى Pliny<sup>(١٥٨)</sup> فإن الإسكندر أصدر الأوامر لصياديه ، وحارسى صيده ، وصائدى السمك له ، وغيرهم ألا يمتنعوا عن أرسطو أى نوع يطلبه منها وأن يمدوه بما يريد من المعلومات . ويعتذر الفيلسوف عن اهتمامه بتلك الأشياء الصغيرة فيقول : « ليس فى الأشياء الطبيعية ما يخلو من الأعاجيب ، وإذا ما احتقر إنسان التفكير فى الحيوانات الدنيا ، فإن عليه أن يحتقر نفسه »<sup>(١٥٩)</sup> .

وهو يقسم المملكة الحيوانية قسمين ، ذات دم وغير ذات دم : إنيما ، وأنيما Anaima, Enaima وهما يقابلان بوجه التقريب تقسيماً لإياها إلى « فقاريات » و « لافقاريات » . ثم يعود فيقسم الحيوانات غير ذات الدم إلى صدفية ، وقشرية ، ورخوة ، وحشرات ، ويقسم الدموية إلى أسماك ، وقواذب(\*) ، وطيور ، وثندياب .

وتشمل بجهته فى هذا العلم ميدانا واسعا مختلف الأنحاء . فهو يبحث فى أعضاء الهضم ، والإخراج ، والحس ، والحركة والتكاثر ، والدفاع ؛ وفى أنواع الأسماك ، والطيور ، والزواحف ، والقردة ، ومثالث غيرها من الأصناف ؛ وفى فصول تزواجها ، وطريقة حملها صغارها ، وتربيتها لإياها ؛ وفى ظواهر البلوغ ، والحيض ، والحمل ، والإجهاض ، والوراثة ، والإنتام ؛ وفى مواطن الحيوانات وهجرتها ؛ وما يعيش عليها من الطفيليات وما ينتابها من الأمراض ؛ وفى طرق نومها وفصول سباتها . . . وهو يشرح حياة النحلة شرحاً وافياً ممتعاً<sup>(١٦٠)</sup> . وكتابه مليء بالملاحظات

(\*) القواذب أو البرمائيات : هى التى تعيش فى البر والبحر على السواء . (المترجم)

العجيبة العارضة ، كقوله إن دم الثيران يتجمد أسرع من تجمد دماء معظم الحيوانات الأخرى ، وإن بعض ذكور الحيوان كالجمل والخنزير ، وإن اللبن ؛ وإن الحليل ذكوراً وإناثاً أكثر الحيوانات شهوانية بعد الإنسان(\*) (١٦١) .

وهو شديد الاهتمام بأجهزة التوالد وأساليبها في الحيوان ، وتثير دهشته كثرة الأساليب التي تتوصل بها الطبيعة إلى الإبقاء على أنواع الأحياء ، وكيف « تحتفظ بالنوع حين يعجزها أن تحتفظ بالفرد (١٦٢) » ، وقد ظل عمله في هذا الميدان فلذا منقطع النظر حتى القرن الماضي . ومن أقواله أن حياة الإنسان تدور حول بورتين - الأكل والتوالد (١٦٣) : فللأنثى عضو يجب أن يعد بمثابة مبيض لأنه يحتوي على ما يكون في بادئ الأمر بيضة غير متميزة ، ثم تتميز بعدئذ فتصبح بويضات كثيرة (\*\*\*) . والعنصر الأنثوي يزود مادة الجنين بالطعام ، أما عنصر الذكورة فيزوده بالجهد والحركة ، والأنثى هي العنصر المنفعل ، أما الذكر فهو العنصر النشط الفعال (١٦٥) . ويرفض أرسطو ما يراه أبداً وقليس وديموقريطس من أن جنس الجنين تعينه حرارة الرحم أو تغلب أحد عنصرى التكاثر على العنصر الآخر ؛ ثم يصوغ بعدئذ هذه النظريات على أنها من وضعه فيقول : « كما عجز العنصر المكوّن (الذكر) عن أن تكون له الغلبة ، ولم يستطع لنقص حرارته أن يطبخ المادة ، أو يشكلها في شكله هو ، انتقلت هذه المادة إلى . . . صورة الأنثى (١٦٦) » ويضيف إلى ذلك قوله : « وقد يحدث أحياناً أن تلد

---

(\*) تدل بعض الإشارات الواردة في « تاريخ الحيوان » على أن أرسطو أعاد مجلداً في الرسوم التشريحية ، وأن بعض هذه الرسوم قد نقلت من هذا المجلد على جدران اللوقيون ؛ وهو يستخدم في كتابه الحروف على الطريقة الحديثة ، ليشير بها إلى بعض الأعضاء أو بعض النقاط في الرسوم .

(\*\*) لقد عجز أرسطو ليس عن أن يميز بين المبيض والرحم ، ولكن وصفه لم يحسن تحسناً ذا بال قبل عمل استنسن Stenson في عام ١٦٦٩ .

المرأة ثلاثة صغار أو أربعة ، وخاصة في أجزاء معينة من الأرض . وأكبر عدد ولدته امرأة هو خمسة أبناء ، وقد حدث هذا عدة مرار . وحدث في زمن ما أن وضعت امرأة عشرين طفلا على أربع دفعات وأن عاش معظم هؤلاء الأطفال حتى كبروا (١٦٧) .

وهو يستبق القرن التاسع عشر في كثير من نظريات علم الأحياء . فهو يعتقد مثلا أن أعضاء الجنين وخواصه تتكون بواسطة جزيئات دقيقة ( هي ذرات التناسل بالتجمع العام » التي يذكرها دارون(\*) ) تنتقل من كل جزء من أجزاء الشخص الكبير إلى عناصر التوالد (١٦٨) . وهو يقول كما يقول فن بير Von Baer إن الخواص المميزة للجنس تظهر في الجنين قبل غيرها من الصفات ، ثم تليها الخواص المميزة للنوع ، وتلي هذه الخواص المميزة للفرد (١٦٩) . وهو يذكر مبدأ يفخر به هربرت إسبنسر ، وهو أن خصوبة الكائن الحي بوجه عام تتناسب تناسباً عكسياً مع تعقد تطوره (١٧٠) وخير ما يتجلى فيه نبوغه هو وصفه جنين الدجاج :

« أجزأ إذا شئت هذه التجربة : إيت بعشرين بيضة أو أكثر ، واجعل دجاجتين أو أكثر ترقدان عليها . ثم نخل منها بيضة في كل يوم ؛ ابتداء من اليوم الثاني إلى أن تفقس واكسرها وافحص عنها . . . ففي حالة الدجاجة العادية تستطيع رؤية الجنين أول مرة بعد ثلاثة أيام . . . فيظهر القلب في صورة نقطة من الدم ، ينبض ويتحرك كأنه قد وهب الحياة ، ويخرج منه وعاءان بهما دم يسيران في تلافيف ، وغشاء يحمل خيوطا رفيعة دموية من

---

( \* ) يشير الكاتب إلى ملهـب دارون في الوراثة القائل بوجود ذرات تنفصل من جميع أنواع خلايا الجسم فتلقطها غددة التناسل ، وهذه الذرات رموز جميع الأنسجة تتجمع في المبرومة ومنها يتفلق المولود الملهيد ( معجم الدكتور حرف ) . ( المترجم )

أنابيب الوريدين ويحيط بجميع أجزاء المخ (الصفار) . . . وبعد عشرة أيام يرى الفرخ بجميع أجزائه واضحا كل الوضوح (١٧١) .

ويعتقد أرسطو أن جنين الإنسان ينمو كما ينمو جنين الكتكوت : « ويرقد الطفل في رحم أمه بهذه الطريقة عينها . . . لأن طبيعة الطائر يمكن تشبيهها بطبيعة الإنسان (١٧٢) . » وهو يستطيع بنظريته الخاصة بالأعضاء المتشابهة أن يرى عالم الحيوان في صورة جامعة : « فالظفر مماثل للمخلب ، واليد شبيهة بثنية السرطان القاطعة ، والريشة بقشرة السمكة (١٧٣) » وهو يقترب في بعض الأحيان من نظرية النشوء والارتقاء :

« تسير الطبيعة قليلا قليلا من الأشياء غير الحية إلى الحياة الحيوانية بطريقة يستحيل معها أن نحدد تحديدا دقيقا متى تنتهي هذه وتبدأ تلك . . . فجنس النبات مثلا يأتي بعد الجمادات غير الحية في سلم الرقي ، وهذا النبات لا حياة فيه نسبيا إذا وازنا بينه وبين الحيوان ، ولكنه حتى إذا ووزن بالأشياء الجمادة . وفي النبات سلم تصاعدي مستمر نحو مرتبة الحيوان . ففي البحر أشياء لا يستطيع الإنسان أن يقول هل هي حيوان أو نبات . . . فالإسفنج مثلا شبيه بالنبات من جميع الوجوه . . . وبعض الحيوانات ثابتة في أماكنها لا تنتقل منها ، وإذا انتزعت منها هلكت . . . أما من حيث الحساسية فإن بعض الحيوانات لا يظهر فيها ما يدل عليها ، وبعضها تظهر فيها غامضة . . . وهذا النوع بعينه يظهر في سلم الرقي الحيواني (١٧٤) .

وهو يرى أن التردد صورة وسطى بين الإنسان وغيره من الحيوانات التي تلد (١٧٥) ، ولا يقبل فكرة أنبادوقليس عن الانتخاب الطبيعي للتغيرات العارضة ، لأن النشوء والارتقاء ليس فيهما أشياء عارضة ، بل إن خطوط التطور يحددها ما في كل فرد ، ونوع ، وجنس من دافع فطري لكي ينمي نفسه

نماء يصل به إلى أقصى درجة من تحقيق طبيعته . إن لهذا التطور خطة مبرمجة ولكنها تدفع من الداخل نحو الغرض يجذب كل شيء إلى أن يكمل طبيعته .

ويمتزج بهذه الآراء النيرة كل ما يتوقع الإنسان وجوده في ذلك الزمن القاصي الذي يبعد عنا نحو ثلاثة وعشرين قرناً من أخطاء كثيرة ، يبلغ بعضها من الشناعة حداً لا نرى معه حرجاً إذا ظننا أن مؤلفات أرسطو في علم الحيوان قد اختلطت فيها مذكراته بمذكرات تلاميذه (١٧٦) . فكتابه في تاريخ الحيوان معين لا ينضب من الأخطاء ؛ فهو يقول فيه إن الفيران تموت إذا شربت الماء في الصيف ، وإن الفيلة لا يصيبها إلا مرضان - الزكام والانتفاخ ، وإن الحيوانات كلها ما عدا الإنسان يصيبها السعور إذا عضها كلب كلب (\*) ، وإن ثعبان الماء ينشأ نشأة شيطانية ، وإن الإنسان وحده هو الذي يخفق قلبه ، وإنه إذا رج صفار عدة بيضات اجتمع في وسط الإناء ، وإن البيض يطفو فوق الماء الكثير الملح (١٧٧) . يضاف إلى هذا أن أرسطو يعرف عن الأعضاء الداخلية للحيوان أكثر مما يعرفه عن الإنسان ، فقد يلوح أنه لا هو ولا أبقراط قد تحوررا من سلطان الدين فأقدا على تشريح الأجسام البشرية (١٧٨) . ومن أجل هذا وقع في أغلاط شنيعة منها قوله إن ليس للإنسان إلا ثمانية أضلاع ، وإن أسنان المرأة أقل من أسنان الرجل (١٧٩) ، وإن القلب أعلى من الرئتين ، وإن القلب لا المخ هو مركز الإحساس (\*\*\*) (١٨٠) . وإن وظيفة المخ هي تبريد الدم (بالمعنى الحرفي لهذه العبارة) (١٨١) . وآخر ما نذكره من هذه الأغلاط أنه ( هو أو إنساناً آخر سمجاً ثقيلاً ) قد ذهب بنظرية الخطأ الموضوعية . مذاهب يضحك منها كل حكيم . « من الواضح أن النباتات قد خلقت لمنفعة الحيوانات ، كما خلقت الحيوانات لمنفعة الإنسان » « لقد جعلت الطبيعة الأعجاز للراحة ، لأن ذوات الأربع تستطيع أن تقف

---

(\*) ويسمى أيضا الحديث والقرنث والمزف وهو ضرب من الحيوانات البحرية (eels)  
(\*\*) وقد أرقه في هذا الخطأ عدم إحساس أنسجة المخ بالتنبيه المباشر . ( المترجم )

على أرجلها دون أن تتعب ، أما الإنسان فهو في حاجة إلى ما يجلس عليه<sup>(١٨٢)</sup> . وحتى هذه الفترة الأخيرة تكشف عن طبيعة أرسطوطاليس العلمية ؛ فقولف هذا الكتاب يرى أن من الأمور المسلم بها أن الإنسان حيوان ، ولهذا يبحث عن الأسباب الطبيعية لما بين الإنسان والحيوان من فروق في التشريح . وقصارى القول أن تاريخ الحيوان في مجموعه هو خير مؤلفات أرسطوطاليس على الإطلاق ، وأنه أعظم ما أثمره العلم في بلاد اليونان أثناء القرن الرابع . وقد لبث علم الأحياء عشرين قرناً ينتظر ظهور مؤلف يضارعه .

### ٣ - الفيلسوف

إذا ما انتقل أرسطوطاليس إلى دراسة الإنسان نفسه أصبح ميتافيزيقياً أكثر منه عالماً طبيعياً . ولسنا ندرى هل منشأ هذا التحول هو تقواه الشديد أو احترامه لآراء بني الإنسان . وهو يعرف النفس (Psyche) أو العنصر الحيوى بأنه « الدافع الداخلى الأول فى الكائن العضوى » أى الصورة الفطرية المقدرة لهذا الكائن والتي تدفع نماءه وتحدد اتجاهه . وليست النفس شيئاً يأتى إلى الجسم من خارجه أو يسكن فيه بل هى موجودة معه فى كل جزء من أجزائه ؛ أى أنها هى الجسم نفسه من حيث « قدرته على تغذية نفسه وتنميته وانحلاله » ؛ فهى جماع وظائف الكائن العضوى ، وهى للجسم كقوة الإبصار للعين<sup>(١٨٣)</sup> . بيد أن هذه الناحية الوظيفية ناحية أساسية ، فالوظائف هى التى توجد التراكيب والرغبات هى التى تشكل الأعضاء ، والنفس هى التى تكون الجسم : « فالأجسام الطبيعية كلها أعضاء للنفس (\*) » .

---

(\*) ويفسف أرسطوطاليس إلى قبله السابق الدال على نزعة مثالية عجيبة قوله : إن « النفس هى بمعنى ما جميع الموجودات ؛ لأن الأشياء كلها إما إحساسات أو أنكار<sup>(١٨٥)</sup> » وهو يتفق فى آرائه مع بركلى Berkeley ومع هيوم Hume فى آن واحد . انظر مثلا إلى =

والنفس ثلاث درجات : نامية ، وحاسة ، وناطقة . فالنبات يشترك مع الإنسان والحيوان في النفس النامية - أى في قدرته على تغذية نفسه وعلى انماء الداخلى ، وللحيوان والإنسان فضلاً عن هذه النفس نفس حاسة - أى قدرة الإحساس ، وللحيوانات الراقية والإنسان نفس « منفعلة عاقلة » - أى قدرة على الأشكال البسيطة البدائية من الذكاء ، والإنسان وحده هو الذى له نفس « فاعلة عاقلة » - أى قدرة على التعميم والابتكار . وهذه النفس الأخيرة جزء أو انبعاث من قوة الكون الخالقة العاقلة وهى الله ، وهى بهذا الوصف لا تموت (١٨٧) . ولكن هذا الخلود غير شخصى ، أى أن الذى يبقى هو القوة لا الشخصية ؛ والفرد مركب فذ فإن من المواهب النامية والحاسة والعاقلة ؛ وهو لا يصل إلى الخلود إلا نسبياً ؛ وذلك عن طرق التوالد ، وبطريقة غير شخصية عن طريق الموت (\*).

والله هو « صورة » العالم أو « حقيقته الفعلية entelechy » - طبيعته الفطرية ، ووظائفه ، وأغراضه (\*\*\*) كما أن الروح هى « صورة » الجسم .

سورة : « إن العقل واحد مستمر بالمعنى الذى تكوّن به عملية التفكير واحدة ومستمرة ؛ والتفكير هـ . يعينه الألكار التى هى أجزاءه

(٥) ويمكن تفسير أنه ال أرسطو طاليس المتناقضة في هذه المقئلة تفسيرات أخرى . والنس الذى أبتناه دأ مأخذ من المجلد الرابع من تاريخ كامبردج القديم Cambridge Ancient History من ٣٤٥ ؛ ومن الجزء الثانى من كتاب أرسطو طاليس تأليف جروت Orotin من ٢٣٣ ، ومن كتاب النفس (Psyche) تأليف رود Rhode من ٤٩٣ .

(٥٥) ويرى أرسطو كما يرى أفلاطون أن الأمر الجوهري في أى شىء هو « الصورة » eidon لا المادة المصورة ؛ وايست المادة هى « الشىء الحقيق » بل هى إمكانية ساقبة منفعلة لا تتخذ لها وجوداً خاصاً إلا إذا دفعتها الصورة وحدتها .

والعلل كلها ترتد آخر الأمر إلى العلة الأولى التي لا علة لها(\*) ، كما ترد كل الحركات إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ؛ ولا بد لنا أن نفترض وجود أصل أو مبدأ لما في العالم من حركة أو قوة ، وهذا الأصل هو الله . وكما أن الله هو جماع الحركة كلها ومصدرها ، فهو كذلك جماع كل غايات الطبيعة وهدفها ، فهو العلة الآخرة والأولى . ولنا ليرى الأشياء في كل مكان تتحرك نحو غايات معينة : فلأسنان الأمامية تنمو سحادة لتقطع الطعام ، والأضراس تنمو مستوية لتطحنه ، والجفن يطوف ليقى العين ، والحدقة تتسع في الظلام لتدخل قدراً كبيراً من الضوء ، والشجرة تمد جذورها في الأرض ، وغصونها نحو الشمس (١٨٩) . وكما أن الشجرة تجذبها طبيعتها الفطرية وقوتها وأغراضها نحو الضوء ، فكذلك العالم ينجذب بطبيعته الفطرية وقوته وأغراضه وهذه كلها هي الله . وليس الله هو خالق العالم المادى ، ولكنه صورته المنشطة ، وهو لا يحركه من خلفه ولكنه هو الموجه له من الداخل أو هدفه ، يحركه كما يحرك الحب الحبيب (١٩٠) ، ويقول أرسطو أخيراً إن الله فكر خالص ، وروح عاقل . يتبدى في الصور السرمدية التي تكون جوهر العالم والله في وقت واحد .

وغاية الفن ، كغاية الميتافيزيقا ، هي القبض على الصورة الجوهرية للأشياء ، وهو تقليد أو تمثيل للحياة (١٩١) ، ولكنه ليس نسخة آتية لها ، والذي تقلده هو روح المادة لا جسم المادة ولا المادة نفسها ؛ وعن طريق هذه البعبيرة أو عكس هذا الجوهر لنا تعكس المرآة الجسم قد يبدو الشيء القبيح نفسه جميلاً . والجمال

---

(٥) يقول أرسطو : إن كل معلوم يخرج من أربعة عاقل : المادية ( التي يتكون منها ) ، والجمالية ( العاقل فيها أو قلة ) ، والشخصية ( طبيعة الشيء ) ، والعاقلية ( الهدف ) وهو بضرب لذلك ، من حيثها فيقول : « ما هي العلة المادية للإنسان ؟ هي العلة » ( أي وسرد البيضة ) . وما هي العلة الجمالية ؟ هي العلة والبطانة ( أي عليه نزلت ) . وما هي الشكلية ؟ هي الطبيعية ( أي طبيعة العوامل ذات الشأن ) . وما هي العلة العاقلة ؟ هي الغاية التي يهدف إليها » ( ١٨٨ ) .

هو الوحدة ، هو تعاون الأجزاء وتمائلها في الكل . وتكون هذه الوحدة في المسرحية وحدة العمل قبل كل شيء ؛ ولذلك يجب أن يكون أعظم ما تهتم به المسرحية عملاً واحداً ، وأن يكون الغرض الوحيد مما فيها من أعمال أخرى هو أن ترقى بهذه القصة الرئيسية أو توضحها . وإذا أريد أن يكون العمل الفني غاية في الروعة والجودة وجب أن يكون موضوعه متما بالنبل أو البطولة .

ويقول أرسطو في تفسيره الشهير للمأساة : « المأساة تمثيل موضوع في البطولة ، كامل متسع إلى حد ما ، بلغة تزدان بكل أنواع المحسنات . . . فهي تمثل رجالاً يعملون ولا تعتمد إلى القصص ، ثم تستعين بالرحمة والخوف لتخفف من وقع هذه العواطف وغيرها (١٩٣) » . والمأساة تستثير أعنف عواطفنا ثم تهدئها بخاتمها المسكنة . وبذلك تعرض علينا تعبيراً عن العواطف لا ضرر فيه ولكنه ينفذ إلى أعماق النفس ، ولولا هذا التعبير لتجمعت العواطف فصارت عصباً أو عنفاً . فهي تظهر من الآلام والأحزان ما هو أكثر رهبة من آلامنا وأحزاننا ، وتعيدنا إلى بيوتنا مبرئين مطهرين . وقصارى القول أن ثمة لذة في تأمل عمل من أعمال الفن الحقيقية . ومن الشواهد الدالة على رقى الحضارة أن تقدم للروح أعمالاً خليقة بهذا التأمل . ذلك بأن « الطبيعة لا تطلب إلينا أن نشغل أوقاتنا بالأعمال الطيبة فحسب : بل تتطلب فوق ذلك أن نكون قادرين على أن نستمتع بفراغنا بأشرف الوسائل (١٩٣) » .

فما هي الحياة الطيبة إذن ؟ يجب أرسطو عن هذا السؤال ببساطة وصراحة فيقول إنها الحياة السعيدة ؛ وهو لا يريد أن يبحث في كتاب الأخلاق (\*)

---

(\*) لقد كان كتاب أخلاق نيقوماخوس (رسمى كذلك لأن الذي نشره هو نيقوماخوس ابن أرسطو) وكتاب السياسة في أول الأمر كتاباً واحداً . وكان الناثرون اليونان يستخدمون هذه الصيغة المزدوجة وهي الأخلاق والسياسة (ta etika of ta politika) ليمبروا بها عن علاج عدة مشاكل أخلاقية وسياسية ، وقد احتفظ بها كما هي حين انتقلت الكلمتان إلى اللغة الإنجليزية .

( كما يبحث أفلاطون ) كيف يجعل الناس أحياناً ، بل يريد أن يبحث كيف يجعلهم سعداء ! وهو يرى أن غير السعادة من الأغراض لا يسمى إليها لذاتها بل هي وسيلة لغاية ، أما السعادة فهي وحدها التي تبتغي لذاتها (١٩٣) . وثمة بعض أشياء لا بد منها للحصول على السعادة الباقية وهي : المولد الطيب ، والصحة الجيدة ، الوجه الجميل ، والحظ الطيب ، والسمعة الحسنة ، والأصدقاء الأوفياء ، والمال الوفير ، والصلاح (١٩٥) . « وليس في وسع إنسان أن يكون سعيداً إذا كان دميم الخالقة (١٩٦) » « أما الذين يقولون إن الذي يعذب على العذراء ، أو تحل به كارثة شديدة ، يكون سعيداً بشرط أن يكون صالحاً فقولهم هراء (١٩٧) » . وينقل أرسطو بصراحة ينذر وجودها في الفلاسفة ، جواب سمنيدس لزوجة هيرن إذ سألته أيهما أفضل الحكمة أو الغنى فقال : « الغنى ، لأننا نرى الحكماء يقضون أوقاتهم على أبواب الأغنياء (١٩٨) » . لكن الثروة وسيلة لا أكثر ، فهي في حد ذاتها لا ترضى غير البخيل ، وإذا كانت الثروة نسبية فإنها لا ترضى إنساناً زمناً طويلاً . وسر السعادة هو العمل ، أي بدل الجهد بطريقة تتفق مع طبيعة الإنسان وظروفه . والفضيلة حكمة عملية ، وهي تقدير الإنسان بعقابه لما فيه من خبز (١٩٩) ، وهي في العادة وسط بين نقيضين ، والإنسان في حاجة إلى الذكاء لمعرفة هذا الوسط ، وإلى ضبط النفس ( إنكراتيا enkrateia أو القوة الداخلية ) لممارستها . ويقول أرسطو في جملة من جملة النموذجية إن « الذي يغضب مما ومن ينبغي أن يغضب منه ، ويفضرب فوق ذلك بالطريقة الحقة وفي الوقت المناسب للغضب ، ويطول غضبه الزمن الملائم ، إن هذا الرجل خليق بالثناء (٢٠٠) . وليست الفضيلة عملاً ، بل هي تعود عمل الصواب ، ولا بد أن تفرض في أول الأمر بالتدريب والتهديب ، لأن الشبان لا يستطيعون أن يحكموا في مثل هذه الأمور حكماً صادقاً حكماً ، فإذا مضى بعض الوقت فإن ما كان من قبل نتيجة الإرغام يصبح عادة أي « طبيعة ثانية » ، ويكاد يبحث من اللذة ما تبعته الشهوة .

ويختتم أرسطو هذا البحث خاتمة تناقض أشد التناقض ما بدأه به وهو قوله إن السعادة في العمل ، وإن أحسن حياة هي حياة الفكر . ذلك أن الفكر في رأيه هو الدليل على ما انفرد به الإنسان من تفوق وامتياز ، وأن « العمل الخليق بالإنسان هو أن تعمل نفسه بالاتفاق مع عقله » (٢٠١) . « وأسعد الناس حظاً هو الذي يجمع بين قدر من الرخاء وقدر من العلم ، أو البحث أو التفكير ، فهذا الرجل هو أقرب الناس إلى الآلهة » (٢٠٢) . « والذين يرغبون في اللذة المستقلة يجب أن يطلبوها في الفلسفة ، لأن غيرها من اللذات يحتاج إلى معونة الإنسان » (٢٠٣) .

#### ٤ - - السياسي

ويرى أرسطو أن علم السياسة هو علم السعادة الجماعية كما أن علم الأخلاق هو علم السعادة الفردية ، وأن وظيفة الدولة هي أن تقيم مجتمعا يحقق أعظم سعادة لأكبر عدد . « والدولة هي مجموعة من المواطنين ذات عدد يكافئ لتحقيق جميع أغراض الحياة » (٢٠٤) ، وهي نتاج طبيعي ، لأن « الإنسان بطبيعته حيوان سياسي » (٢٠٥) ، أي أن غرائزه تؤدي به إلى اجتماع مع غيره . « والدولة سابقة بطبيعتها على الأسرة ، وعلى الفرد » : ذلك أن الإنسان كما نعرفه يولد في مجتمع منظم من قبل يشكله في صورته .

وبعد أن درس أرسطو مع طلابه ١٥٨ دستوراً يونانياً ، تسم هذه الدساتير ثلاثة أنواع مختلفة ، ملكية ، وأرستقراطية ، وديمقراطية ، أي حكم أصحاب السلطان ، وأصحاب المولد الشريف ، والنهائ . وكل نوع من

(٥) لم يبق من هذه الدراسات إلا كتابه « أحوال الدولة الأيونية » Athenion Pollitia ، وقد عثر عليه في عام ١٨٩١ ، وهو تاريخ دستوري لأثينة من غير ما كتب في موضوعه .

هذه الأنواع قد يكون صالحا حسب زمانه ومكانه وظروفه . وتقول إحدى  
الجملة التي يجب على كل أمريكي أن يحفظها عن ظهر قلب « إن نوعا من  
أنواع الحكم قد يكون أحسن من غيره من الأنواع ولكن ليس ثمة ما يمنع  
أن يكون نوع آخر خيرا منه في ظروف خاصة (٢٠٦) » . وكل حكم حسن  
إذا كانت السلطة الحاكمة تعمل لمصلحة الناس جميعاً لا لمصلحتها الخاصة ؛ فإذا  
لم تفعل هذا فكل حكم سيئ . ومن ثم كان لكل نوع من أنواع الحكم الصالح  
شبيه فاسد حين يكون حكماً لمصلحة الحاكمين لا لمصلحة المحكومين ؛  
ففي هذه الحال تنحط الملكية فتصير استبدادا ، والأرستقراطية فتصبح  
أبهرجية ، والديمقراطية فتكون ديمقراطية أي حكم العامة (٢٠٧) . فإذا كان  
الحاكم المفرد صالحا وقديراً كانت الملكية خيرا أشكال الحكم ، أما إذا كان  
أفراطيا أنانياً كان حكمه حكماً استبدادياً ظالماً ؛ وهو شر أنواع الحكم .  
وقد تصلح الحكومة الأرستقراطية إلى حين ولكن الأشراف (الأرستقراط)  
الذين يتولون أموراً ينزعون إلى الاضمحلال والاضطراب . ويندر أن  
نجد شخصا نبيل الخلق بين الأشراف بمولدهم بل إن معظمهم لا يصلحون  
لشيء على الإطلاق . . . فالأسر ذوات المواهب العالية كثيراً ما تنحط  
فيكون أبنائها من الهجانين ، ومن أمثلة ذلك أبناء ألبينادس وديسوس  
الأكبر ؛ أما المتوسطون منهم فكثيراً ما يكونون حتى أو أغبياء كأبناء  
سيمون ، وهركليز ، وسقراط (٢٠٨) . وإذا ما انحطت الأرستقراطية  
حلت محلها في العادة حكومة أبهرجية من أصحاب المال أي حكومة ذوى  
الثراء . وهذه خيرة من طغيان الملك أو طغيان الغوغاء ، ولكنها تضع السلطة  
في أيدي رجال لا تتسع نفوسهم لأكثر من ذلك العمل الصغير وهو حساب  
تجارتهم ، أو ذلك العمل الإجرامى الدنيء وهو أكمل الربا (٢٠٩) ، وينتهي  
أمرهم إلى استغلال الفقراء بلا وازع من ضمير (٢١٠) .

والدمقراطية - وهو يعنى بها حكومة العامة من المواطنين demos - لا تقل خطورة عن الأبرككية لأنها تعتمد على انتصار الفقراء القصير الأمد على الأغنياء فى كفاهما من أجل السلطة ؛ ونتيجتها هى الفوضى المؤدية إلى القضاء عليهما معاً . وخير ما تكون الديمقراطية حين يسيطر عليها الملاك الزراعيون ، وأسوأ ما تكون حين يسيطر عليها رعاى المدن من الصناع والتجار (٢١١) . نعم إن « حكم الكثرة يكون فى كثير من الحالات خيراً من حكم الفرد ، لأنها لكثرة أفرادها أبعد عن الفساد والرشوة بعسد الماء الكثير عن التلوث » (٢٢) . ولكن الحكم يتطلب كفاية خاصة ودراية خاصة وهـ ليس فى مقدور من يعيش عيشة الصناع البسيط أو الخادم الأجير أن يحصل على التفوق المطلوب « (٢١٣) ، (أى على الخلق الطيب والتدريب ، وصحة الحكم على الأمور) . وقد خلق الناس كلهم غير متساوين . نعم إن « العدل فى المساواة ، ولكن هذا لا يكون إلا بين الأكفاء » (٢١٤) . ولا يقل استعداد الطبقات العليا لإثارة الفتن إذا فرضت عليهم مساواة غير طبيعية عن استعداد الطبقات الدنيا للتمرد إذ بلغ عدم المساواة درجة من التطرف غير طبيعية (\*) (٢١٥) . وإذا ما سيطرت الطبقات الدنيا على الديمقراطية فرضت الضرائب على الأغنياء لتوفر المال للفقراء ؛ « فإذا أخذه الفقراء شرعوا يستزيدون منه ، وما أشبه هذه الحال بصب الماء فى المنخل ٢٢ (٢١٧) ، ومع هذا فإن الرجل المحافظ الحكيم لن يترك الناس يموتون جوعاً ، وهـ يجب على الوطنى الحق فى الحكومة الديمقراطية أن يحد من أن تكون أغلبية الشعب فى فقر مدقع . . . ، وعليه أن يبذل جهده فى أن يوفر لها الخبز على الدوام ؛ وإذا كان الأغنياء يستفيدون أيضاً من هذا ، فإن من الواجب أن يقسم ما يمكن ادخاره من الأموال العامة بين الفقراء بحيثى يكتفى نصيب كل منهم لأن يبتاع به حقلاً » (٢١٨) .

(\*) ويطان أرسطو أن الرق نفسه نظام مشروع ؛ فكما أن من الصواب أن يحكم العقل بالعلم ، فإن من الصواب كذلك أن يحكم المتفوقون فى الذكاء من لا يتفوقون إلا فى قوة الجسم (٢١٦) .

وهكذا يرد أرسطو للأغنياء ما يكاد يعدل ما أخذه منهم ، وبعد أن يفعل هذا يعرض توصيات متواضعة لا يقصد بها أن يقيم مدينة فاضلة ، بل يهدف إلى إقامة مجتمع خير من المجتمع القائم في زمانه إلى حد ما .

ثم ينتقل بعد هذا للبحث عن أصلح نوع من أنواع الحكم وأحسن أسلوب من أساليب الحياة يوائم المجتمعات بوجه عام .

ولسنا نريد أن يكون هذا الحكم وذلك الأسلوب مما يتفق مع تلك الفضيلة السامية البعيدة عن متناول العامة ، أو مع تلك التربية التي لا يناها إلا من هيأت له الطبيعة والحظ جميع الفرص الطيبة ، أو مع تلك الخطط الخيالية التي يضعها الناس في أوقات لهوهم ومرحهم ؛ بل نريد أن يتفقا مع أسلوب الحياة الذي تستطيع كثرة الجنس البشرى أن تصل إليه ، ومع نظام الحكم الذي تستطيع معظم المدن أن تقيمه (٢١١) . . . ومن أراد أن يقيم حكومة على أساس شيوعية السلع فليرجع إلى تجارب كثيرة من السنين ؛ فإذا فعل فسيتضح له هل هذا نظام نافع أو غير نافع ؛ ذلك أن الأشياء كلها تقريباً قد عرفت ولم يبق منها مجهولاً إلى القليل (٢٢٠) . . . إن الشيء الذي يشترك فيه كثيرون لا يعنى به إلا أقل عناية ؛ ذلك بأن الناس يوجهون من العناية إلى ما يملكونه لأنفسهم أكثر مما يوجهون إلى ما يشاركونهم فيه غيرهم (٢٢١) . . . ولا بد لنا أن نبدأ بحثنا بافتراض مبدأ عام وهو أن ذلك الجزء من الدولة الذي يرغب في بقاء الدستور الجديد يجب أن يكون أقوى من ذلك الجزء الذي لا يرغب في بقاءه (٢٢٢) ويتضح من هذا أن أحسن الدول نظاماً هي التي تكون الطبقات الوسطى فيها أكبر عدداً وأعظم قوة من الأغنياء أو الفقراء . . . وفي جميع الحالات التي قل فيها عدد أفراد الطبقة الوسطى عن الحد الواجب تغلبت عليها الطبقة التي تفوقها في العدد ، سواء أكانت طبقة الأغنياء أم طبقة الفقراء ، وتولت بنفسها تصريف الشؤون العامة . . . ؛ وإذا ما سيطر الأغنياء على الفقراء ، أو الفقراء على الأغنياء ، لم تستطع هذه الطبقة أو تلك أن تقيم دولة حرة (٢٢٣) .

ويقترح أرسطو وضع « دستور مختلط » أو إقامة حكم « تمقراطي » ، وهو خليط من الأرستقراطية والديمقراطية ، يمنع به هذه الدكتاتوريات المقيدة للحرية سواء أكانت دكتاتورية الأغنياء أم الفقراء . وهو يريد أن يكون حق الانتخاب في هذا النظام مقصوراً على ملاك الأراضي ، وأن تكون فيه طبقة وسطى قوية هي مصدر السلطة وقطب دائرتها ، « ويجب أن تقسم الأرض قسمين ، أحدهما يملكه المجتمع بوجه عام ، والآخر يملكه الأفراد متفرقين » (٢٢٤) . ولا بد أن يكون كل مواطن من الملاك ، ويجب « أن يطعموا على الموائد العامة جماعات » ، وهؤلاء وحدهم هم الذين يقترعون أو يحملون السلاح . وسيكون هؤلاء أقلية صغيرة من السكان ، لا تزيد على عشرة آلاف . « ويجب ألا يسمح لواحد منهم أن يشتغل بمهنة آلية أو يكسب عيشه من طريق التجارة ، لأن هاتين المهنتين غير شريفتين ، وتقضيان على التفوق » (٢٢٥) . كذلك يجب ألا يفلحوا الأوض ، . . . بل ينبغي « أن يكون الفلاحون طبقة من الشعب قائمة بنفسها » - ولعله يريد أن تكون من الأرقاء . ويختار المواطنون الموظفين العموميين ويحاسبون كلا منهم على أعماله في نهاية المدة التي يتولى فيها منصبه . ويجب أن تحدد القوانين الموضوعة وفقاً لنظام قويم ما يصدر من الأحكام في جميع القضايا بقدر المستطاع ، بحيث لا يترك إلا أقل عدد مستطاع منها لتصرف القضاة (٢٢٦) . . . ذلك أن « حكم القانون خير من حكم الفرد . . . ، وأن من يعهد بالسلطة العليا لإنسان أياً كان إنما يعهد بها إلى وحش من الوحوش ، لأن شهواته تجعله في بعض الأحيان وحشاً . وللعواطف أثر كبير فيمن يتولون السلطة ، ولو كانوا هم خير من يتولاها ، أما القانون فهو العقل مجرداً عن الشهوة » (٢٢٧) . والدولة المقامة على هذا النظام تتولى تنظيم الملكية ، والصناعة ، والزواج ، والأسرة ، والتعليم ، والأخلاق ، والموسيقى ، والأدب ، والفن . « وأحق من هذا كله بالعناية ألا يتجاوز عدد الناس حداً معيناً . . . لأن إهمال هذا

الواجب يؤدي إلى افتقار المواطنين (٢٢٨) ؛ ويجب ألا يسمح بترية أبناء مشوهين عاجزين ، ومن هذه الأسس السليمة تفتح أزهار الحضارة والطمأنينة . « وإذ كان الذكاء أعظم الفضائل ، فإن أهم ما يجب على الدولة ليس هو إعداد المواطنين للتفوق الحربي ، بل هو تعليمهم كيف يستفيدون من السلم الاستفادة الصحيحة (٢٢٩) » .

وبعد فليس من الضروري أن ننصب أنفسنا حكاما على أعمال أرسطوطاليس . وحسبنا أن نقول إنا لا نعرف أحداً من الناس قبله قد شاد مثل هذا الصرح الرائع من التفكير . وحين يمتد نشاط الإنسان الذهني إلى ميادين واسعة ، فإن من حقه علينا أن نعنو عن كثير من زلاته ، إذا ما وسعت نتائج بحوثه إدراكنا للحياة . وإن أخطاء أرسطو - أو أخطاء المجلدات التي نعددها بالحق أو بالباطل ثمار قلمه - لتبلغ من الوضوح حدا لا نحتاج معه إلى إيرادها مفصلة . فهو رجل منطقي ، ولكن هذا لا يمنعه أن يقع في كثير من الأغلاط المنطقية ؛ وهو يضع قواعد البلاغة والشعر ، ولكن كتبه أيقة مشتبكة الأغصان من سوء النظام ، أوراقها المتربة نفضة من ربح الخيال . بيد أننا إذا ما توغلنا في هذه الأيقة ، التقينا فيها بكنز من الحكمة والنشاط العقلي الذي شق طرقا كثيرة في ميدان العقل .

وليس في وسعنا أن نقول إنه قد أوجد علم الأحياء ، أو تاريخ النظم الدستورية ، أو النقد الأدبي - إذ ليس في العالم قط بدايات - ولكن هذه الموضوعات كلها قد أفادت منه أكثر مما أفادته من أي رجل نعرفه من الأقدمين . والعلوم الطبيعية والفلسفة مدينة له بالعدد الجم من المصطلحات التي يسرت في صورتها اللاتينية تبادل الأفكار . . منها المبدأ ، والنهاية ، والموهبة ، والوسط ، والصنف ، والطاقة ، والباعث . ، والعادة ، والغاية ، principle, maxim, faculty, means, category etc (٢٣١) . end . ولقد كان كما سماه بيتر Pater « أول المدرسين » (٢٣١) .

وكانت سيطرته الطويلة على الأساليب والبحوث والفلسفة مما يوحى  
بمخضبة تفكيره ، ونفاذ بصيرته . وإن كتابيه في الأخلاق والسياسة(\*)  
ليفوقان أمثالهما كلها في الشهرة وعميق التأثير حتى أيامنا هذه ، وإذا ما أنقصنا  
من تقديرنا له كل ما فيه من عيوب ، فإنه يبقى بعدها « سيد العارفين » .  
وذلك دليل مشجع على ما يمتاز به العقل البشرى من مدى واسع مرن ، وهو  
إلهام مطمئن إلى الذين يكلحون في سبيل جمع معلومات الناس المتفرقة  
وتنسيقها وفهمها .

---

(\*) لقد ترجم هذين الكتابين إلى اللغة العربية الأستاذ أحمد لطف السيد وطبعتهما  
بلغة المؤلف . ( المترجم )